الْعَرَبَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْقِطَارِ

روايـة

عادل السمري

دار حروف منثورة للنشر الإليكترونى

مؤسس الدار

مروان محمد

نوع العمل: رواية

اسم العمل: العربة الأخير من القطار

اسم المؤلف: عادل السمري

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الثانية إلكتروني إبريل ٢٠١٨

تصميم الغلاف : فريق الدار

تنسيق داخلي: فريق الدار

تدقيق لغوى: بمعرفة الكاتب

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura٢٠١١@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني المجاني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

رواية

العربة الأخيرة من القطار

عادل السمري

الفصل الأول

ليس مهماً على الإطلاق إن كنت نائماً واستيقظتُ.. أم كنتُ بغفلة وأفقتُ.. أم كنت موصداً عينيَّ وأشرعتهما إلى السقف

المهم الآن أني في كابينة قطار مسترخياً على سريرها بملابسي الداخلية

على طاولة بالقرب من السرير قميص وبنطال وحقيبة جلدية أنيقة وأسفلها جورب وحذاء مغبَّر

مَن أنا؟!

حقيقة لا أعرف مَن أنا

لا شيء بعقلي الفارغ إلا من تلافيفه يذكر

لا شيء يقودني إلى هويتي

كأني خرجت لتوي من رحم اللا شيء

أتيت من فضاءات العدم

أو أني كنت متشرنقاً في تلك الكابينة وأفرختني لتوها

بالفعل لا شيء بذاكرتي البيضاء

حتى وجهي لا أدري له ملامح مستكينة في مخيلتي

لا مرآة حولي أتطلع فيها إليَّ لعل هناك ما كُتب على جبيني

زجاج نافذة القطار لا يصف ولا يشف إلا أعمدة وأشجار الطريق..
تخايله شمس الأفق اللاهثة خلف القطار فلا يعكس لي ظلاً
وثبتُ من رقدتي ناحية الطاولة
فتَّشتُ القميص والبنطال
لا شيء بهما سوى تذكرة سفر مدون بها وقت الحجز وتاريخه
الأقصر ـ القاهرة
تناولتُ الحقيبة وفتحتها بشغف وقلبي تتواثب دقاته
يتوق للوصول إلى هويتي أيضاً
الحقيبة متخمة بأوراق الـ "فلوسكاب"
أوراق الـ "فلوسكاب" ذات ترتيب وترقيم
ضُمت إلى بعضها البعض بدبوس مكتبٍ أسود ذي رأس كبير
مكتوب على سطورها بالقلم الحبر.

ـ١ـ

منذ شهور لم أحصِها عددا وأنا على هذا الحال..
ما أن تغمر المغارب سماء الكَفر حتى أهب فزعاً من رقدتي، أفتح باب الدار الخشبي العتيق وأعدو حافياً على الجسر.. أبعثرُ

خطواتي المرتعشة على مسافاته الممتدة.. عيناي الزائغتان تتصنعان الانتباه.. تحملقان في كل الاتجاهات لئلا يمسك بي أحد ويعيدني لداري ثانية.. أنهج.. قلبي ينتفض كعصفور سقط في يد عيل صاده، كل ما فيَّ يسوقني إلى التلة الكائنة بالجرن القبلي للكَفر.

ملامحه تخايلني.. تباغتني دوماً من خلف أشجار الكافور المنتصبة على جانبي الجسر كأشباح فرَّت من عالمها اللا مرئي يناديني.. صوته يطنُّ في أذني تحمله إليَّ بعنف الريح الزاعقة في وجه الأشياء

حينما أصل أنحني متكئاً على ركبتيّ.. أنظِّم عقد أنفاسي المنفرط بين ضلوعي ثم أستقيم.. أتتبع قطرات الدماء المتساقطة حتى أصل إليه..

على قمة التلة يجلس القرفصاء

نظره مصوب إلى السماء ينتظر أن يخرج له القمر من مداراته البعيدة

يشعر بهزال خطواتي المتقدمة نحوه فيقول لي دون أن يلتفت:

_ لماذا أتيت وأنت مريض؟

صوته يخترق جدارات روحي فيرد لي بعضاً من عافيتي الواهنة لأغالب ضعفي وأنطق:

ـ ألم تعد ترغب في رؤيتي؟

لم يلتفت.. وكأنه لم يسمع ما قلته، أو سمعه وتجاهله، وقال في هدوء:

ـ للانتظار ثقل على النفس حتى لو كان مسبباً.. ورغم ذلك نتعاطاه دون أن ندرك أنه مهلكة للعمر

اقتربت منه، ووضعتُ يدي على كتفه.. أريد أن أتطلع لوجهه لكنه توقف عن الكلام ووضع يده على يدي وضغط؛ فتسللت برودتها إلى جسدي.. ولما منعني من أن أصبح قبالته تجمَّدتُّ مكاني وأكملتُ حديثه قائلاً:

ـ يولد الانتظار وقت أن يولد الواحد منا.. يلازمنا طيلة الوقت.. ننتظر في الصغرِ الكبرَ.. وفي الفقرِ الغنى.. وفي المرضِ الصحةَ.. ننتظر السراء في الضراء.. والعوض في الفقد.. ننتظر الليل في النهار.. والنهار في الليل.. ننتظر القمر...

ـ ننتظر القمر أن يولد

قاطعني وقالها بعدما رحنا ببصرينا إلى تخوم السماء الواسعة فوق محيط التلة فألفنا القمر يولد.. يتمخض عنه رحم الليل..

مضيئاً كابتسامة طفل في عين أمه.. تأملناه ملياً كما اعتدنا ثم نهض غائر العينين.. يترنح.. غارقاً في دمائه.. صدره ينزُّ دماً ويخرُّ على قدميه.. وقال لي مستعطفاً:

- احملني على كتفيك كما كنت تفعل من قبل

جلستُ له فاعتلى كتفي.. وأحكمتُ قبضتي على قدميه ونهضتُ واقفاً

تماسكتُ وعاندتُ هزالي ورحتُ أهبط التلة وهو يقول لي:

- فى رقبة من دمي؟
- .....
- لماذا أهدر على رؤوس الأشهاد وارتوت به جنبات الجرن؟.. كل هذا لأني وحيد امرأة لاحول لها ولا قوة
- لا تقل هذا.. دمك في رقبتي.. حقك عندي يا صاحبي
- كم أشفق عليك يا صاحب العمر.. كُتب عليك أن تكمل مشوارك وحيداً دوني.. كنت أود البقاء بجانبك.. لكن ما باليد حيلة
- ما هذا الذي تقوله يا جنيدي؟ أبكَ خبل يا ولد..؟ تمتطيني كحمار ليس له صاحب حتى كسرت ظهري وتقول لي كُتب عليك أن تكمل مشوارك وحيداً دوني.. جنيدي.. لماذا لا ترد؟

- .....

هبطتُ التلة وأنا أناديه.. وما أن استقرت قدماي على أرض الجرن حتى خفَّ الحمل عن كتفيّ.. تلاشى.. ونهض أبي واقفاً في وجهي معنفاً إياي، قائلاً:

- الجنيدي مات يا خالد.. لن يرد عليك ولو عشت عمرك كله تناديه.. استرد عقلك يا بني وكفاك ما تفعله في نفسك وفي أمك وأخوتك وفيَّ.. ما عاد لي جهد لهذا، يكفيني كوم اللحم المعلق في رقبتي، ما عدتُ أدري هل أنظر له لأسدَّ أفواهه المفتوحة، أم أترك أشغالي وأظل أراقبك دوماً يا أكبر رجالي.. تفضل على الدار.. ومن الغد يجب أن ترحل إلى القاهرة، ما عاد لك قعود بالكَفر..

أقعدني التعنيف عند مطلع التلة، فصرتُ كنبتةِ صبار على أعتاب قبر، دسستُ رأسي في صدري.. اجتاحتني نوبة بكاء عاتية تركتُ على إثرها الدموع تجري بعيني، تجرف ما علق من آهات في مجرى حلقي.. هذيتُ من فرط الحسرة:

- يا أبي، جنيدي لم يمت.. صدقني، لم يمت.. كنتُ معه الآن.. كنتُ أحمله على كتفي.. هو على رأس التلة الآن يتطلع للقمر.. لا أخفيك سراً يا أبي أن جنيدي عاشق، والعاشقون دائماً ما ينتقون

الأماكن التي يتطلعون منها لوجه القمر.. صح يا جنيدي.. ولد يا جنيدي.. أجبني يا صاحب العمر.. أسمِع صوتك لأبيك ممتاز.. عرِّفه أنك على رأس التلة.. يا جنيدي

خرجت الكلمات من فمي يبترها النحيب والنشيج

سقطت على قلب أبي فأبكت عينيه

مدَّ لي يديه.. فنهضتُ

وسعني براحهما.. فاتكأتُ عليهما

سندني في الطريق حتى أوصلني للدار

لا أعرف لماذا آثر هذه المرة أن يفجعني..؟ أن يشهد تصدع نفسي وانهياري أمام عينه وهو يخبرني بنبأ موت جنيدي..

في كل مرة كان يتتبعني منذ خروجي من الدار وحتى اعتلائي التلة في صمت ودون أن أدري كان يجلس لي أسفلها ينفث همه وثقل انتظاره في لفائف تبغه المعبأة بها علبته الصاج الصدئة

وما أن أهبط إليه يلازمني في صمت إلى الدار

كان على ثقة أني ألتقي بجنيدي وأحدثه وأحمله على كتفي، لكنَّ حرصه في الحفاظ على ما تبقى من عقلي أثناه عن إبداء ثقته تلك لي.

****

الشتاء همجي الإقبال

يجتاح حدود الكَفر بلا هوادة

ينصب غيماته المثقلة بحبات المطر في ساحة السماء

فوق أسطح الدور المرفوعة من البوص والغاب والقش وأعواد الحطب الجاف

وفي غمرة السكون وسطوة النوم يُصوِّب

يُطلق المطر زخات فينفذ من فراغات الأسطح

يصيب الملتحفين بغطاءاتهم المهلهلة.. يغتال دفء مضاجعهم

يقلقلهم من فرشتهم فينهضون ليزودون عن متاعهم وأغراضهم

تتراص الحلل والطشوت وكل صنوف الأوعية في كل مسافات الدور الطينية

يضعونها أسفل المواضع التي تخرُّ

بعد حافة الجسر بمترين تقبع دارانا أنا وجنيدي لا يفصلهما سوى دار الخالة سلمى أم حبيب

الجسر يعلو مداخل دورنا قليلاً، والمطر المكوم على ظهره يسيل من الحافة يندفع ناحية عتباتها ليُغرق دهاليزها.

ولأن الخالة سلمى لا عائل لها ولا ولد فقد حملت على عاتقها عبء الطرق على بابي دارينا حتى نصحو ونشرع في فعل فعلة كل شتاء

ـ أنا لم أنم حتى أصحو يا خالة.. أيقظي خالد إلى أن أخرج إليكما

أزعق بقوة راداً على جنيدي؛ فأنا أيضاً لم أهنأ بنوم، وأستعجله في الخروج قبل أن يداهمنا الغرق

تنفتح الأبواب الخشبية

نخرج

سواعدنا مشمرة

جلبيتانا أحكمنا ربط ذيليها حول خصرينا

"الكلسون" الصوفي لكلٍّ منا مشدود بالغصب فوق ركبتينا

فى يدينا فأسانا

يباغتنا برد الشتاء قارصاً

لا نبالي به فإننا عمودان من أعمدة الشباب ومستودعان للقوة والحيوية

كان يكفي أن يفتح أحدنا فمه حتى تعلو قهقهاتنا

تلك التي كان دوماً يستهجنها أبي وزوجته وتضحك لها أمهاتنا

خرجت صاخبة من أفواه خشنة الأحبال الصوتية

تلطم وجه الشتاء وتعبث بسكون الليل

- جاهز يا جنيدي
- جاهز يا فنان
- استعنا على الشقا بالله.. اسمع يا جنيدي هات بفأسك كل التراب الذي لم يطوله المطر واصنع منه سداً أمام عتبة دار الخالة سلمى إلى أن أنتهي من جر هذا الوحل بعيداً.
- عنك أنت يا فنان، دع لي جرَّ الوحل حتى لا يطولك منه شيء.. وتعالَ لهذا العمل السهل.. الفنانون لايليق بهم إلا السهل

كان علينا أن نصنع سداً بطول واجهات الدور الثلاثة لنحجز خلفه ما يسيل من حافة الجسر.. ثم نسرع إلى دار الخالة سلمى لنؤمِّن لها قاعة دارها الوحيدة.

في دار الخالة سلمى تتحول تلك القاعة اليتيمة إلى مسرح، أنا فقط من اعتلى خشبته الطينية.. وهى وجنيدي المتفرجان الوحيدان..

أفكُّ ذيل جلبابي..

أتقمَّص شخصية الفنان محمود المليجي في فيلم الأرض

وكما كان يفعل أدسُّ إحدى يديّ بعد أن أنظفها جيداً في صدري

أستدعي من الذاكرة صوته، ومن الخيال حركاته

وبصوت خفيض لا يتناهى لمسامع أبي أرتجل قائلاً:

ـ الشتا اللي فات غرقنا وغرقت دور الكَفر.. والشتا اللي قبله واللي قبله ونزلنا في عز الثلج والبرد نبني السدود عشان دورنا ماتغرقش وشوفنا موت الكلاب الضالة بعنينا ودفنا فراخ وبط ومعيز جنب الجسر لا خفنا ولا ولينا.. ليه..؟ لأننا كنا رجالة ووقفنا وقفة رجالة.. وفي الشتا دا عملنا إيه يا خالة سلمى؟ صحينا على طول لما خبطي علينا وبنينا السد ووقفنا معاكي كان زمانك اتكلتي على الله ورُحتي في شربة مية دلوقتي.. ودا ليه..؟ لأننا رجالة ووقفنا وقفة رجالة..

تنفجر القاعة بتصفيقهما، وتعلو قهقهاتهما، ويظهر خواء فم الخالة سلمى من أية أسنان توحد ربها، ومن فرحتها بنا تنعتنا بالجحشين! وتعقبُ أن لولاها لكُنَّا في عداد الغرقى..

ويؤذن الفجر ونعتزم الصلاة في زاوية الكَفر رغم وحل الطريق.

عاشقان أنا وجنيدي..

نرفل في دروب العشق مذ أن صار لنا وعي وإدراك

لزم كلٌّ منا عشقه حتى عشش بداخله وأفرخ أحلاماً وأمنياتٍ

عشقتُ فنَّ الإخراج السينمائي حتى بتُّ هائماً في عالم لا وجود له إلا في مخيلتي

عالم لا أحيا حقائقه إلا في حضرة جنيدي ولا أطمئن إلى أنه قريب المنال

إلا حينما يصفق لي كلما أديت أمامه مشهداً من أحد الأفلام أو قصصت عليه قصة فيلم أود إخراجها إذا أصبحت مخرجاً.. ولا أطمئن أكثر إلا حينما يكبُّ على مسامعي إصراره على نزوحنا إلى القاهرة بعدما تظهر نتيجتنا في ليسانس الآداب لكي ألتحقُ بالمعهد العالي للسينما ويلتحق هو بأيِّ عمل حتى يستطيع الزواج من فردوس.

فردوس..

عشق جنيدي الأوحد والأبدي

تلك الآخذة من الجنة اسماً من أسمائها

ومن حورها العين نفحة عبق وفتنة

ومن الملائكة ظلاً في الأرض يلازمها

تلك كلماته التي ما ملَّ يوماً من كبِّها في أذني

بتُّ أغدق عليه بالعديد من الألقاب

كان أحبها لنفسه ما قرن اسمه باسمها.. (جنيدي فردوس)

مع أول أنفاس للصبح هو على قمة الجسر ينتظرها، وهى تتهادى خلف أمها تحمل لها الميزان وكفتيه وتوصلها لسوق الكَفر؛ فهي ابنة بائعة الجبن

وفي المغرب هو على سطح داره يرقبها، وهى تهشُّ طيورها لتبيتهم في عشتهم، فدارها في ظهر داره

وبعد العشاء نكون معاً على قمة التلة، نفضفض تحت ظلال القمر السابح في عرض السماء، لا حديث لنا إلا عن اثنتين..

فردوس والسينما.

-٣-

ظل الشتاء يرجم الكَفر بمطره ثلاث ليال، وفي الرابعة سرَّح غيماته بعيداً وسلَّمنا سماء صافية.. رائقة.. قلبنا فيها البصر فاستوثقنا أن لا زخات لمطر اليوم، ولا سيولاً، ولا أوحالاً، وإن الشمس طالعة بلا حجب أو غيم.

وقتها عقد جنيدي العزم على أن يصطحبني في الصباح معه إلى السوق حيث تجلس فردوس وأمها كي يلقي على أعتاب التطلع إليها شوق ثلاثة أيام لم يلمح فيهم طرفها.

تباً للشتاء وللمطر، وتباً لجنيدي وفردوسه وعشقه.. ما ذنبي حتى أصحو باكراً لأتسكع في السوق الموحل مع هذا الجنيدي..؟ وعلى كلٍّ فنحن ظلٌّ لبعضنا البعض ولا يجدر بأحدنا أن يفارق ظله مهما حصل.

وقع دبيب خطواته على أرض الجسر كوقع حوافر دواب المبكرين إلى غيطانهم واسع وقوي، صباحاته على الرائحين والغاديين مفعمة بالهيام والرقة، كان منتشياً كأفراخ بط تتهادى ناحية (قناية) ماء.

وكنتُ وخماً كسولاً كنعجة أم حصيرة.. أتثاءب حيناً، وأفرك عيني حيناً آخر، وإن بادرني أحد بسلام اكتفيتُ بالإشارة له برأسي المثقلة بالنوم.

عند مدخل السوق الغربي تمهل جنيدي قليلاً ينتظرني؛ فقد كنت بعيداً عنه بقصبة على الأقل، ولما اقتربتُ منه وصرت بمحاذاته لقف ذراعاً مني، وتأبطه، ورمى ثقل جسده وشوقه عليَّ، ودلفنا إلى السوق.

زقاق ضيق لم يترك فيه باعة كفرنا سوى موضع قدم للداخل والخارج؛ فالكَفر كله أزقة ضيقة تلتفُّ حول نفسها، لا وسع به إلا الجرن القبلي الذي تتوسطه التلة.

قال جنيدي وأنا في غيبة من عقلي حينما غفوتُ وأنا أسير بجواره كلاماً كثيراً لم أفطن إلا لنهاياته فقط، ذلك حينما لكزني بكوعه وتقدَّم قليلاً حتى نستطيع السير في زقاق السوق:

- ..... كلام سوف تحتاجه غداً في أفلامك حينما تصبح مخرجاً كبيراً
- أيُّ كلام يا جنيدي؟
- الشوق
- الشوق؟
- نعم الشوق يا خالد.. الشوق الذي يجعل المشتاق كدجاجة على وشك أن تبيض، فتراها تدور حول نفسها تبحث عن أرض تضع بها حملها. قل لي يا فنان، هل تعتقد أن بها نفس شعور الدجاجة أيضاً أم أن الأمر لا يعنيها في شيء؟
- لا يعنيها.. انظر أمامك الآن وأنت تعرف أن كان يعنيها أم لا؟

عيناي المخزوقتان بالنوم لمحت بالكاد خيالات على الجانب الآخر لفردوس وهى تمسك جاروفاً وتزيح الوحل المتراكم بعيداً لتمهِّد جلسة لأمها، وما أن لمحتنا حتى تسمَّرت في وقفتها فبدت كعود بان أخضر.

نفَرَت خصلاتٌ من شعرها فدسَّتها في عَجل أسفل عصابة رأسها الوردية.. ورمت اتساع صدر عباءتها للخلف لتواري ما بان من صدرها

ورمت نظرات عينيها الواسعتين البُنِّيتين اللامعتين في عين الشمس الناضجة لتوِّها في كبد السماء ناحية جنيدي وتركتهما عنده هائمتين.

التفتَ إليها لمَّا نبَّهته فلملمَت عيناه نظرات عينيها وتسمَّر مكانه كأن أحداً دقَّ مسماريين بقدميه ولم يستطع الحراك، دفعته من ظهره، وكشيطان أوعزتُ إليه أن يتناول منها الجاروف ويمهِّد لأمها جلستها

تقدم ناحيتها.. فتقدمت هي الأخرى، لكنَّها سرعان ما تراجعت لما فطنَت أن أمها على مقربة منها، وأعين الناس.. تقدمتُهما قليلاً وتخيَّرتُ زاوية أسلِّط منها أضوائي عليهما، وأضعهما في كادر ضيق ليس به سواهما وقطعة من السماء

للعشق ألق لا يضاهيه ألق

وللشوق في عيون العشاق زخات كالمطر

ولفردوس قلب رائق كحليب أمها

ترى على صفحته وجه جنيدي القمحي

ولمَ لا

فجنيدي من رباه على العشق صغيراً منذ أن كانت تلهو صاحبته بيننا على الجسر صغيرة وقبل أن تكف عنها الطفولة يديها اللاهيتين

راح جنيدي لفردوس مقترباً

تطلَّع في عينيها

منحته حق التطلع حتى الذوبان

وظننتُ أن التطلع سيدوم طويلاً حتى ينفضَّ السوق، لكن جنيدي كـ "جان" تهفو إليه القلوب مدَّ لفردوس يده ليأخذ عنها الجاروف.. فناولته إياه

تلامست بالقصد يداهما

وخضَّبت حمرة الخجل وجنتيهما

وسرت في أذني أعذب ألحان الأرض

وتخيَّلتُ أن الكاميرا تدور حولهما.. ووريقات الورد تتناثر في الكادر على رأسيهما

راح ثلاثتنا في عالم لاحسي، وعوالم العشق اللاحسية كلها متاحة تسربلنا بالخيالات والأمنيات وتلاقينا على أعتاب الغد نطرق أبوابه

نرجوه أن يعجِّل بالاحتواء

كل ذلك كان للحظات

وددتُ لو بيدي لصنعت على أرض الواقع منها أكثر المشاهد رومانسية في تاريخ السينما

وعلى حين غرة.. أفقنا

انطفأ الضوء في الكادر..

إظلام

عدنا من حيث كنا

أتت بنا صيحات أم فردوس ولطيمها لنجد حليبها على الوحل مهرق

ووعاء الجبن مدهوس.. دهسته قدم قاصد

ويدٌ تدفعها بعنف للخلف لتسقط على الأرض مغشياً عليها

لم يكن لأحد أن يجرؤ على فعلة كهذه سوى رضا السلباوي، هذا العتي في الإجرام الذي لا يكاد يخرج من السجن حتى يعاود إليه بتهمة أنكر من التي سُجن على ذمتها، كان ابن كَفرنا وبلوته وخيبة نظام أفرخ في طول البلاد وعرضها ألف ألف رضا السلباوي

صرخت فردوس وأقبلت نحوه تُمني نفسها أن تنشب أظافرها في رقبته.. لكنه أفلت

أمسك كفيها

أحكم قبضته عليهما

جذبها نحو صدره

تأرجحت عيناه بالشبق في مواضع من جسدها ولم تكف عن التأرجح إلا حينما ناوله جنيدي بالجاروف في وجهه وشدَّ منه فردوس ونحَّاها جانباً

وبدأ الاشتباك

في المشهد رواد السوق من كَفرنا والكفور المتاخمة له

كثيرون

خائفون

سِجل ابن السلباوي الإجرامي معلق على جدارات أذهانهم

يدفعهم للتراجع كجراد يطارده عيل بيده سعفة نخل

الباعة انسحبوا بمشنَّاتهم، وأقفاصهم، وحاجياتهم لقلب السوق

أوسعوا للاشتباك مكان في الزقاق، فصار ابن السلباوي بيني وبين جنيدي

وضع يده في جنبه وأخرج من طيات ملابسه مطواة

فتحها عن آخرها؛ فلمعت شفرتها في عين الشمس
لوَّح بها في وجه الهواء وأسمع من وقف يتفرج:
ـ تمد يدك عليَّ يا جنيدي يا ابن الزانية.. أنت يا جلف يا من لا أصل لك ولا فصل.. والله يا كلب لو قطعت من لحمك فلن يبكي عليك في الكَفر غير الزانية أمك
خطوات ابن السلباوي ناحية جنيدي ليطعنه بمطواته لم تكن أسرع من خطواتي ناحيته من الخلف.. لقفتُه من قفاه.. من ياقة جلبابه.. ولففتُ ذراعي حول رقبته.. خنقتُه.. وأمسكتُ اليد التي تحمل المطواة وأحكمتُ قبضتي بقوة عليها،
كان عفيّاً ابن الحرام
قاومني كثيراً
كاد أن يفلت مني ويجهض محاولاتي لشلِّ حركته
لولا أن أدركني جنيدي، وبعزم ما فيه من قوة ركله في خصيتيه
زعق ابن السلباوي كالحريم.. وخارت قواه
فك إحكام قبضته من على المطواة فهوت تحت قدمي
وهوى من بين ذراعيّ على وحل الزقاق
اختنقت أنفاسه في صدره
وضع يديه بين فخذيه وتلوَّى

شعرتُ لوهلة أن روحه تنسحب منه، فخشيتُ أن تفيض على يدينا ويُزَجُّ بنا في السجن بسبب مشبوه كهذا؛ فأشرت لجنيدي أن يكفَّ عن أيِّ ردِّ فعل ينتوي القيام به؛ فامتثل للأمر وراح يساعد فردوس في استعادة وعي أمها، فقد حُسم أمر الاشتباك لصالحنا نهض ابن السلباوي بالكاد يلملم نفسه كقط بسبعة أرواح صدمه جرار حرث ولم يمت.. كانت مطواته كل همِّه، راح يمسحُ وحلَ المسافات حوله بعينيه بحثاً عنها، ولما فطنتُ لمبتغاه دفعتُ بها بقدمي ناحيته فتناولها بوحلها ودون أن ينبس ببنت شفة، استقبل مدخل السوق الغربي وراح خارجاً منه يجرُّ في خطواته المثقلة بألم ركلة جنيدي

شيئان لم يسقطا من بوتقة ذاكرتي عن هذا اليوم

إحداهما قول أم فردوس بعدما أفاقت واجتمع الخلق حولها:

ـ أنا قلتُ له لا يصح ما تفعله يا رضا يا ابني.. كيف ترضى أن تأخذ من خالتك إتاوة، وأنا من ربتك في دارها.. كيف تقبل على نفسك قوت أولاد خالتك البنات الأيتام؟

أما الآخر تلك النظرة المشتعلة غدراً والتي صبَّها رضا السلباوي فوق رأس جنيدي وهو يخطو خارجاً من مدخل السوق

****

لي دار رحبة

بناها جدي لأبي على قيراط ونصف

يتوسَّطها دهليز، من رحابته كان يقيم به أبي حلقات الذكر والمديح في حضرة رجال الكَفر كلهم

في نهايته غرفٌ ست تضج بإخوتي التسعة، وزوجة أبي، وأمي

أما جنيدي فلم نرَ له أب قط

كل ما وصل إلينا من نبأ أصله وفصله أنه ابن تاجر كبير يقيم بكَفر الشيخ

وله أخوة كثيرون كان يزورهم كل عام مرة

ما تناقلناه من سيرته أيضاً أن أمه حملته صغيراً وحلَّت به على خالها بالكَفر وعاشت بيننا حتى مات خالُها وورثت عنه الدار؛ فلم يكن له أبناء، وظل سبب مجيئها للكَفر خافياً علينا أو عني بالأخص

مرة واحدة سألتُ فيها جنيدي إن كان يحب أباه أم لا.. ولم أعد على مسامعه هذا السؤال ثانية طيلة ما قضيناه معاً من عمر بعدما قال لي في عفوية شديدة:

ـ أحتاجه.

يوم أن ظهرت نتيجتنا ونجحنا في الليسانس ظلَّت أمي وأمه تزغردان حتى ملأتا الأفق بزغاريدهما، وليلتها طاف أبي شرق الكَفر وغربه يدعو الرجال لحلقة ذكر يقيمها بدارنا، ويدعو العمدة، وشيخ الخفر، ورجالهما

إن كنت بلا صديق فاصنع لك على الفور صديق

لا تعش في تلك الدنيا بدون صديق

فالدنيا بلا صديق كحلق صائم في نهار شديد القيظ

اصنع على عينك صديق يقاسمك رداءتك

ومسافات دروب تسلكها

وأمنيات جائعة للوجود

ويا حبذا لو كان به بعض من جنيدي

جهزنا حقائب الرحيل للقاهرة وانتوينا السفر يوم جمعة بعد أن ننفضَّ من حلقة الذكر، وجهَّزنا خطة أحكمها جنيدي بإتقان، للحقِّ معظمها كانت من أجلي واليسير من أجله

أما نصيبه منها تمحور حول البحث عن مدرسة خاصة بالقاهرة يبدأ على الفور العمل بها وكنّا نعرف من أين سنبدأ رحلة البحث؛ فقد كان الأمر يسيراً ولدينا من سيساعدنا

أما نصيبي فقد كان شاقاً كما كان يصفه لي جنيدي ويمعن التفكير في تيسيره بشتى الطرق.. كان علينا أن نعرف مكان المعهد العالي للسينما حتى نذهب إليه ونعرف ميعاد التقدم لاختباراته

حمل على عاتقه عبء تثقيفي سينمائياً قبل أن أخوض أية اختبارات للقبول، كان يقول لي:

- اسمع يا فنان بع لي عقلك.. سلِّم لي نفسك.. سأضحِّي من أجلك بالنفيس والغالي، وسأنفق عليك كل ما ادخرناه معاً.. سأتجه لتثقيفك سينمائياً، سأشترى لك كل ما كُتب عن السينما العالمية والعربية، وعليك أن تهضم كل كتاب أضعه بين يديك.. علاوة على ذلك سنرتاد كل سينمات مصر، سنتابع حركة السينما فيها وما أنتجته..

لم يكن عندي ما أقوله وأفعله لجنيدي غير أن أهزَّ له رأسي، وأضع نفسي رهن إشارته.. ففي جيبه كنت أضع نقودي على نقوده، وفي رأسه أضع فكر على فكره

يوم الخميس صلينا العصر في زاوية الكَفر بصحبة أبي وخرجنا نجترُّ وصاياه لنا بألا نتلكأ في كنس وفرش دهليز الدار بالحصير حتى لا يأتي الرجال فلا يجدون ما يقعدون عليه وإن نسرع في

إعداد المناقد والكوالح والحطب والخشب "وبراريد" الشاي والسكريات

في المغرب كان كل هذا جاهز وأكثر؛ فقد أضأنا بطول واجهات بيتينا وبيت الخالة سلمى حبلاً من اللمبات الكهربائية.. ودلفتُ إلى داخل الدار لأحضر صينية "قلل"، ولما خرجت لم أجد جنيدي.. في أول الأمر ظننته في داره يقضي حاجة لأمه، إلا أن الوقت طال ولم يخرج.. ورُفع أذان العشاء.. وانتهت صلاتها بالزاوية.. وبدأ توافد الرجال.. وهلَّ العمدة، وولده، وشيخ الخفر، ورجالهم، وعمَّ الزحام والصخب

انسللتُ من جانب أبي ورحتُ أسأل عليه أمه، فأخبرتني أنه من المفترض أن يكون برفقتي الآن.. تركتها وتمشيتُ قليلاً ناحية الجسر لعلِّي أجده واقفاً هنا أو هناك.. إلا أني لم أعثر له على أثر.

تفتَّق ذهني عن فكرة..

من الممكن أن يكون على سطح داره واقفاً كعادته يتطلع حباً وولهاً إلى فردوسه.. توعَّدته في سرِّي، وعدوتُ ناحية مدخل داره، وصعدتُ السلم الطيني فأوصلني إلى السطح

ناديتُ عليه، لم يرد.. مسحتُ السطح بعيني، لا مخلوق عليه ولا أثر لجنيدي فوقه.. وجَّهتُ نظري شطر سطح بيت فردوس فألفتها جالسة هي وأمها وأختيها منتظرين بدء حلقة الذكر

حاولتُ لفت نظرها لي فالتفتَت بعد برهة من الوقت وفطنَت لإشاراتى بالسؤال عن جنيدي، فزمَّت شفتيها.. وهزَّت لي كتفيها بما يفيد أنها لا تعرف

نزلتُ إلى دهليز الدار متعجباً من أمر هذا الذي لا يفارقني قط إلا حينما ننام..

أين ذهب؟

فهو لا يتحرك بدوني، وإن تحرك فأكون على علم بكل خطواته، وكذا أنا..

نهض رجالات الكَفر

انتصبوا طولاً

تحلَّقوا في الدهليز

وبدأت أصواتهم تعلو بذكر الله رويداً رويداً

وراحوا يتمايلون كأغصان الشجر حينما تحركه الريح يمنياً ويساراً

لم أتمايل معهم كعادتي، ووقفتُ يعتصرني الغيظ من اختفاء جنيدي المفاجئ

عيناي تبحثان عنه في كل الاتجاهات

للحقِّ أشعر أني وسط هذا الجمع الهائل من أهل الكَفر وحيد بدونه كائن ينقصه شيئ

جسد روحه فارقته ولا يعرف إلى أين

يد صغيرة عادت بي من شرودي، كانت يد عيِّل من عيال الكَفر، قال لي:

- جنيدي يقول لك إلحق به عند التلة في الجرن.

واندفع العيِّل يندسُّ وسط الرجال ويتمايل كما يتمايلون، واندفعتُ أتمايل عجباً من أمر جنيدي حتى وصلتُ التلة.

- ما هذا الذي تفعله يا جنيدي..؟ كيف تتركني وحيداً وتأتي إلى هنا..؟ ماذا سيقول أبي علينا الآن بعدما تركناه وتركنا الرجال وحلقة الذكر..؟ إنَّ هذا ليس وقت القعود على التلة.

كان القمر بدراً في السماء يغلف جنبات الجرن ورأس التلة بما أوتي من ضوء.. وكان لسكون المكان أثر يزيح من نفسي ما لقيته من صخب في دهليز الدار

- ارحل يا خالد.

أتاني صوت جنيدي ضئيلاً، هزيلاً، متقطعاً، خارجاً من بين أصابع يد تمنعه من الكلام والنطق.. نظرتُ للتلة فعرفتُ أن صوت جنيدي يأتي من أعلاها

- لا ترحل.. كيف ترحل دون إذن من أرسل في طلبك؟ تعالَ لترى بعينيك صاحبك العفي وهو كالقطة لا يدري من أمره شيئاً.

رضا السلباوي ثانية، كما أرسل لي من يجرني إلى التلة أرسل لجنيدي من يجرُّ قدمه إليها حتى ينفرد به هو وزمرة من المجرمين أمثاله

أوسعوه ضرباً

لم يرحموه

لم يتركوا به قطعة سليمة

عدوتُ ناحية التلة

نهبتُ مسافاتها نهباً حتى صرتُ فوق رأسها

أربعة ملثمون، مدججون بالسلاح، وخامسهم رضا السلباوي

فقدتُ صوابي لمّا رأيتُ جنيدي غارقاً في دمائه

شعرتُ لوهلة أني ربما أحلم، أو أني أشاهد فيلماً، أو أني غارق في خيالات مشهد أنسجه من بنات أفكاري وأجسِّده بمشاركة جنيدي كما كنا نفعل فوق تلك التلة

الدماء حقيقية على يدي

جنيدي ممداً على التلة يفتح عينيه بالكاد

يئنُّ.. ارتميتُ على صدره

- جنيدي..
- لماذا أتيت يا خالد؟
- نظرتُ حولي فلم أجدك.. ولمّا عرفتُ مكانك أتيتُ إليك
- تعوَّد بعد ذلك أن تنظر حولك فلا تجدني.. لكن إياك أن تنساني.. إياك أن تنسى جنيدي.. وإياك أن تجرَّ الوحل بفأسك ثانية يا صاحبي، تعوَّد أن تجرَّ التراب الذي لم يطله المطر؛ فأنت لم تخلق كي يطولك من الوحل شيء
- ماذا فعلتم بجنيدي..؟

ردَّ عليَّ رضا السلباوي بتشفٍّ، قائلاً:

- نحن لم نفعل به شيء بعد.. انتظر لترى بعينك ما سنفعله حاوطني الملثمون.. أبعدوني..

شلُّوا حركتي

كمَّموني

بينما راح ابن السلباوي ناحية جنيدي وغرز مطواته في صدره ظلَّ يغرزها

لم يعافر جنيدي

كل ما عافر من أجله أن تلتقي عيناي بعينه

أظنه كان يود أن يودِّعني ولو بنظرة

أسلم الروح سريعاً، فحمله ابن السلباوي ورماه من أعلى التلة؛ فهوى حتى صار أسفل أقدام أهل الكَفر الذين جاءوا مسرعين يملأون الجرن بعدما أخبرهم أحد ما بما يجرى فوق التلة

دفعني أحد الملثمين، فلم أشعر بروحي إلا وأنا فوق صدر جنيدي

نفرَ أهل الكَفر يطاردون ابن السلباوي ومن معه، لكن رصاصات أسلحتهم التي ضجَّت بها السماء حذَّرتهم من الاقتراب وفرُّوا هاربين.. ولم يكن للعمدة وولده وخفرهما دور يُذكر؛ فقد صنعوا أذناً من طين وأخرى من عجين.

-٥-

يسومني الفقد سوء العذاب

ولأني غير قادر على مجابهته؛ تركتُ كل رصيدي من الصبر ينفذ ما عاد عندي طاقة على التحمل

يقولون أن الحياة لا تتوقف عند موت بشر وإلا لكانت توقفت لموت النبي الكريم

أعلم ذلك، وأعلم أن الحياة ماضية في حال سبيلها رغم أنفي؛ فموتُ جنيدي لا يعنيها في شيء

لم أرَ زوجة أبي تبكي من قبل كما رأيتها تبكي من أجلي وأنا أستعدُّ للرحيل إلى القاهرة

زوجة أبي لم تكن تُنجب إلا البنات، وأمي مَن كانت تنجب الصبيان، حكمة إلهية ضربت بعرض الحائط كل النظريات التي ابتدعها الإنسان في كون الرجل هو المسئول بنطفته عن كون الجنين ذكراً أم أنثى

لي أخ شقيق وأخت من أبي فارق العمر بينهما شهراً واحداً كانت أمي وزوجة أبي حبليين فيهما

حينما استأذَنت زوجةَ أبي أمي في أن توصِّلني إلى محطة القطار مع أبي حملتُ حقيبتي، وفي الطريق قالت لي:

- أنت ابني الذي لم تنجبه بطني.. لم أحب أحداً في أولاد زوجي كما أحببتك.. أنت الكبير والسند لنا كلنا.. كنت أقسو عليك ولا أعطيك ريقاً حلواً.. لأني كنتُ أريد أن أصنع منك رجلاً صلباً تركن إليه أخواته البنات لو مالت بهنَّ الدنيا.. الضربة التي لا

توجع يا ولد تقوي.. تصلب الظهر لا تحنيه.. أتعرف ما حصل لأم جنيدي..؟ فقدَت عقلها ومشت في بلاد الله بين خلق الله لا تعي شيئاً.. أتريد أن تُحصِّلها وتحرق قلوبنا عليك..؟ تماسك يا ولد واصلب طولك.. وإياك أن تطول غيبتك.. أخواتك البنات في حاجة إلى وجودك أمامهم، ولا تعتمد على إخوتك الصبيان؛ فهم لا زالوا صغاراً لم يشتد عودهم الأخضر بعد.. حينما تضع قدمك في القطار انسَ جنيدي وما حصل له.. راحة جنيدي في راحتك يا ولد

لم تكن زوجة أبي تعلم أني أحمل جنيدي في حقيبتي؛ فما بها قد رصَّه بيده، وفي الحقيبة تركتُ كل حاجياته لم أنحِّها جانباً.. لم تعلم زوجة أبي أني حينما جلستُ على مقعد بالقطار وفي منتصف الطريق وجدتُ أم جنيدي تنادى عليه في عربات القطار وليس على لسانها غير:

- ولد يا جنيدي.. أين أنت يا ولد..؟ أين جنيدي يا خالد يا ابن ممتاز..؟ أين جنيدي يا خالد..؟ يا جنيدي.. يا خالد.. يا جنيدي..

****

انتبهتُ لطرقات خفيفة على باب الكابينة

كان الطارق طفلاً

حينما فتحتُ له استمالت ابتسامته قلبي؛ فملتُ ناحيته

صارت عيناي قريبتين من ملامح وجهه، حدَّقتُ فيه طويلاً

جميل.. ملاك صغير

من ابيضاضه خفتُ أن تعكر أنفاسي صفحةَ بشرته

اتسعت عيناه واشتد سوادهما وكذا بياضهما

وكحبتي فراولة وجدتُ أنفه وفمه

حينما فتح فمه بانت سنتاه الأماميتان.. تنبتان مكان غيرهما

طال شعره الناعم حتى تهدَّل بأناقة على كتفيه

أشعر بألفة ناحيته

شيء يهاتفنى أني أعرفه..

أن بيني وبينه رابطة لكنى لا أعرف أية رابطة تلك

قبل أن أدعوه للدخول دخل كالمعتاد على ذلك

لفت انتباهي أنه يرتدى قميصاً وبنطالاً يشبهان قميصي وبنطالى

الملقيين على الطاولة وكأنهم خيطوا من قماش واحد

دار بنظره في أنحاء الكابينة وقبل أن أنطق بكلمة قال لي:

- أسئلة كل يوم.. من أنت..؟ ومن أنا..؟ وأين نحن..؟ وإلى أين نذهب..؟ ومن أين أتينا..؟ قلتُ لك مراراً لا أعرف شيئاً.. أنا

مثلك بالضبط لا أعرف.. ولو كنتُ أعرف شيئاً ما كنتُ هنا معك

ألجمتنى كلماته.. لم أستطع النطق.. سدَّ كل السبل في وجهي وأكمل بمهارة فائقة في اجتذاب الانتباه:

- عمري سبع سنين.. هذا الشيء الوحيد الذي أعرفه.. وأظن أنك من أخبرني بذلك

دار في الكابينة قليلاً كمن يبحث عن شيء، وما أن لمح تذكرة السفر حتى راح إليها، وأمسكها في يده، وراح يقلبها أمام نظره، ثم وضعها ثانية مكانها ورمقني طويلاً، ثم كمن تذكر شيئاً قال وهو يُخرج من جيب بنطاله تذاكر كثيرة:

- وارد العربة الأخيرة جمعتهم لك من أيدي ركابها.. احتفظ بهم كالعادة.. ولا تنسَ بعد ربع ساعة من الآن سيتوقف القطار.. نريد أن نشتري بعض الأكل؛ فأنا جائع ومللتُ طعام القطار، سأتركك وشأنك الآن وسأذهب لألهو أنا وجروي فالقطار يعج بالأولاد الأشقياء اليوم.

نزح الولد عني ولم يشغلني نزوحه بقدر ما شغلتني الأحداث التي روتها لي الأوراق..

قلَّبتُ نظري فيما لم أقرأه في عجل وبدون ترتيب محاولاً التقاط طرف خيط منها يوصلني لنفسي بسرعة دون الحاجة لقراءة كل تلك الأوراق، لكن العجلة أعادتني لآخر ورقة انتهيتُ إليها، فقلبتها وقرأتُ..

-٢-

كان الممر طويلاً وضيقاً لايسع إلّاىَ وهذا الضئيل المكلف دوماً باصطحابي من غرفتى بالمشفى إلى غرفة الطبيب المعالج
نافذتان مفتوحتان على جانبي الممر ترسم الشمس ظلالهما على رخام أرضه، كنت كلما توقفت في دائرة إحداهما كي تستدفئ أوصالي الباردة ببعض من لمسات معشوقتي يشدني الضئيل ويستعجلني
أنا عاشق الشمس وهى معشوقتي
أنا الوحيد على ظهر هذي الأرض من منحته حق التطلع إليها دون أن يهتز له رمش، أو تغمض عين له، أو تخايله خيالات الوهج، كنت فتاها الذي أرادت له أن يهتك سترها دونما فتيان الكون كله

أمي أورثتني عادة الصحو مبكراً والجلوس على سطح البيت في حضرة الشمس كي تقوى عظامي حتى بت أسيراً لتلك العادة طيلة عمري

الشمس قوَّت عظامي وقلبي ومنحتني عادة اجترار دفئها حينما يغزو البرد أوصال الكون.. لذلك لم يهتز لي جفن حينما حبسوني في تلك الغرفة الباردة صيفاً وشتاءً ومنعوني من رؤية الشمس، لا يعلمون أني أختزنها في نخاع عظامي

فى آخر الممر بضع درجات سلم تأخذك إلى ممر آخر لا يقل ضيقاً وطولاً عن الممر الأول لكن الشمس لا تزوره؛ فنوافذه لا تفتح.. والشمس لا ترسم ظلالا إلا للنوافذ المفتوحة.. فى نهاية هذا الممر حجرة الطبيب المعالج، يوماً ما كانت حجرتي التي أعالج فيها مرضاي

فى تلك الحجرة خضتُ الكثير من المعارك من أجل الحقيقة.. الحقيقة التي اختنقت كما يختنق الممر بضوء اللمبات النيون الأبيض.. الممر في حاجة إلى أن تفتح نوافذه المغلقة من زمن لا بأس به

أعطيتُ يوماً أوامري للعاملين بالمستشفى أن يفتحوها.. وفتحوها لدقائق معدودة بعد صراع مع الصدأ الذي تمكَّن من مفصلاتها

وأبى أن تفتح بسهولة.. وأُغلقت ثانية بأمر العجوز المتصابي مدير المستشفى الذي هاج وماج وكأني أمرتُ بفتح باب الحمام عليه

الضئيل دائماً ما كان يمشي بجواري دون أن يمسك ذراعي إلا أنه حينما يقترب من حجرة الطبيب المعالج يمسك بذراعي ويحكم قبضته عليه ويضغط؛ فأشعر أن ضآلته صارت قوة تجرني لداخلها وتجلسني أمام طبيبي

أكرر.. تلك كانت حجرتي

النافذة المغلقة التي خلف الطبيب كانت مشرعة دوماً في وجه الشمس وقت أن قلت الحقيقة هرع العجوز المتصابي إليها ليغلقها حتى لا يسمع أحداً صوتي العالي وأظنها مغلقة من يومها

خرج الضئيل وأغلق الباب خلفه وتركني مع أشرف سعد الدين طبيبي المعالج حالياً، وتلميذي سابقاً

ـ أهلاً يا دكتور

لم يرفع عينيه ناحيتي وهو يحييني

لايجرؤ على ذلك..

بعض الخونة لايجرؤون على التطلع في أعين من خذلوهم

يخشون النظرة التي تحمل الدهشة من فعلتهم

يتجنبون السؤال الذي من الممكن أن يؤرق مناماتهم.. لماذا خنتم ثقتنا؟

أما البعض الآخر فلا دم عنده ولا ضمير ومن السهل أن يدبَّ عينه في عينيك ويدهشك بكل هذا الكم من التبجح

الدكتور أشرف كان من النوع الأول.. أظنه كان مجبراً على خيانتي والشهادة ضدي في المحكمة، قلتُ له:

- يوماً ما كنتُ أتناول فطوري ودخلتَ علىَّ.. دعوتك لمشاركتي إياه.. لكنك تمنَّعت رغم كونك جائعاً.. لمحتُ الجوع يطلُّ من عينيك، وقتها تركتُ لك نصف الفطور وخرجت من الحجرة متصنعاً الانشغال، وأقسمتُ عليك أن تتناول باقى الفطور ولا تتركه.. هل تتذكر يا دكتور أشرف

ردَّ بدون اهتمام علىَّ

- أتذكر.. لم يكن هناك من يفهمني أكثر منك ويقدر نفسيتي.. أنت حكيم يا معلمي، وقلَّما يجد العالم مثلك.. دائماً ما كنت جائعاً، ودائماً ما كنت أجد الشبع في يد حضرتك
- أشرف.. أقصد دكتور أشرف، لماذا منعت الترامادول عني وأنت تعرف أنهم عوَّدوني عليه ولم أعد أستطيع التخلي

عنه.. جسدي يؤلمني يا أشرف، وأنا كبرتُ في السن ولم أعد أتحمل أعراض الانسحاب

- إنها تعليمات يا معلمي.. ثم إن أصدقاءك القدامى ومريدينك يقومون بالواجب معك ويغطُّون احتياجاتك من الترامادول ومشتقاته وأنا أغض الطرف.. الضئيل يستطيع توفيره لك
- لي طلب أخير يا أشرف، هل لي أن أفتح نافذة حجرتي لأرى الشمس.. أريد أن أرى الشمس من تلك النافذة
- لم تعد حجرتك يا معلمي، إنها حجرتي.. ثم لو أن أحدهم لمحك تقف في نافذتها لا أعرف ما الذي سنصير إليه.. اذهب يا معلمي الآن إلى غرفتك

وذهبتُ بعد أن تطلعت طويلاً في عينيه، لكنه لم يمنحني حق الإبحار فيهما كي لا أستشف بعضاً من الندم بهما على ما فعله بي؛ فقد دسَّهما في سطور ملف أمامه أظنه ملفي ليدون به ما وصلت إليه حالتي

قال لي الضئيل وهو يرافقني إلى الغرفة التي أحبس بها:

- رأيتهم ليلة أمس يأخذون سليمان، أتتذكره يا دكتور..؟ سليمان مريض الغرفة ٢٣٣ الذي عرَّفتك عليه.. رأيتهم يأخذونه وهو يسير على قدميه، وبعد أربع ساعات بالتمام

والكمال عادوا به محمولاً على نقّالة.. تلصصتُ عليهم.. ولمّا رموه على سريره ونزحوا عنه رحتُ أقلبه يميناً ويساراً.. تعرف ماذا وجدت يا دكتور؟

- أعرف قلبته قبلك.. لا أريد أن أسمع منك شيئاً.. وإياك أن تضغط على ذراعي ثانية هكذا أمام الدكتور أشرف.
- إنها تعليمات يا دكتور، ثم إلى متى سأظل أفهمك أني أفعل ذلك من أجل مصلحتك.. وعلى كلٍّ لا تغضب

كم هو حقير هذا الضئيل في تلك اللحظات فقط.. أما في غيرها فهو يحسن معاملتي ويحبني ويوفر احتياجاتي من عقار الترامادول

أعلم أن التعليمات هى مَن تصنع منه حقيراً للحظات؛ ففي ذلك المشفى عليك فقط أن تضع التعليمات وتدعِّمها ببعض العقوبات لمن يخالفها وانظر ما الذي ستؤول إليه أخلاق الرجال

****

قصيرة.. هرمة

متشحة بالسواد

من بعيد أقبلَت تهرول

ترمي نظرها في كل الوجوه التي تمر بها لعلها تهتدي للوجه الذي دُلت على صاحبه

لا أحد يبالي بارتجافة جسدها النحيل

دمعاتها المثقلة بالحسرة تسقي تجاعيد وجهها وتحصدها يداها أولاً بأول

دعتني بابنها أول ما استقرت عيناها عليَّ

أجبتها بنعم، وأوسعت للمارة طريقاً وانتحيتُ بها جانباً

تلعثمَت.. لا الكلمات تطاوعها ولا صوتها يسعفها

هدَّأتُ من روعها وانتزعتُ من على لسانها حدثاً رتَّبه عقلي بصعوبة بالغة

كان مفاده أنها أتت بصحبة زوجها إلى المشفى ليتبرع بكليته لثري عربي نظير أن يرسلهما لأداء عمرة ويعطيهما ألفين من الجنيهات، وأنهم أخذوه منها منذ طلعة النهار لإجراء العملية وإلى الآن لم يعد إليها..

ظننتُ في بادئ الأمر أن تلك المرأة تهذي أو أنها دخلت هنا بالخطأ.. وحاولتُ أن أقنعها أن تلك المشفى هى للأمراض العصبية والنفسية وليست مؤهلة لإجراء تلك العمليات.. لم يجدِ إقناعي لها؛ فمن الواضح أن كلامي قد وقع عليها كالصدمة، أسكتها هنيهة من الوقت دارت فيها عيناها في وجهي تبحث عن الحقيقة في قسماته، ولما توصلت لشيء يرضيها مدَّت طول ذراعيها

تبحث في الهواء خلفها عن جدار تستند إليه بجسدها، ولما لم تجد اتَّكأت عليَّ وهوت تتلمس موضعاً لها على الأرض حتى تربَّعَت ووضعَت رأسها بين كفيها فبان لعيني ظهر يديها، كم هما هرمتان، مليئتان بالتجاعيد كوجهها، لفحتهما الشمس لفحاً

قالت في صوت كسير كلمات أظنها طارت إلى كل الأسماع وطاولت حواف السماء وحطت على قلبى بالوهن:

ـ قلت لك يا (أبو كريمة) أننا ضئيلون للغاية.. إننا حصى تلك الأرض.. افترشنا السادة فيها من أجل أن تطأنا أقدامهم.. لم تصدقني وصدقت أولاد الكلب الذين فرشوا لك الأرض وعوداً.. هل كنت تظن يا (أبو كريمة) أن الله كان سيتقبَّل منا العمرة وقد دفعنا ثمنها من جسدك..؟! إن الله كان سيعفو عنا إن لم نعتمر، ولكنه لم يكن ليعفو عنا وقد فرطنا في أمانته.. فى قطعة من جسدك.. وها قد حل عقابه علينا لقد أضاعنا الله من بعضنا البعض.. ماذا أفعل الآن يا رجل وأنا لا أعرف لك مكأنا ولا أسمع لك حساً ولا خبراً..؟ ماذا سأفعل الآن؟ هل أعود إلى الكَفر بدونك..؟ ماذا إن سألنى ناسه عنك..؟ بماذا أجيبهم..؟ ءأقول لهم رافقته ليبيع كليته ففقدته كله..؟ ماذا أقول لكريمة ابنتك..؟ أقول لها أبوك كان يبيع كليته من أجل

أن يدخل عليك بكيسين من الفاكهة ويفعل معك كما يفعل كل الآباء مع بناتهم ويعطي أولادك نقوداً أمام زوجك كي يرفع من قدرك أمامه وأمام عائلته..؟ أين أنت الآن يا (أبو كريمة)؟ أين أجدك وأين أروح..؟ كيف تتركني هكذا يا رجل في أرض لا خِلّ لي فيها ولا صديق..؟ كنت دليلي فيها يا (أبو كريمة).. ألم تكن تعلم ذلك؟

تحركات مريبة بالمشفى لا أعرف سراً لها..

العجوز المتصابي في حالة قلق يشيح بيده يميناً ويساراً ويبدو أنه يُعنِّف طاقمي الأطباء والتمريض الملتفين حوله في توتر

سيارة إسعاف المشفى الوحيدة تنطلق خارجة دون إذن مني؛ فأنا الوحيد المكلَّف بتسييرها، تحمل شخصاً ما لا أعرف كنيته

مرضاي لما تفقدتهم كلهم بخير وعافية إلا الشيخ محمد عرفان لم أجده في غرفته، ذلك الرجل عربى الجنسية ذو السبعين عاماً، والذى أمرتُ بحجزه بناءً على تقرير جاءني بحالته يفيد أنه يعانى من أمراض شيخوخة

أين ذهب هذا الرجل ولم يمر على حجزه سوى ثلاثة أيام

كل هذا لم أعره انتباهاً فأنا على خلاف دائم مع هذا العجوز المتصابي وأعلم أن أىّ سؤال مني عما يحدث قد يشعل خلافاً

جديداً بيني وبينه وأنا في غنى تام عن أية خلافات جديدة معه، لذا أجَّلتُ معرفة حقيقة كل هذا..

حافظتُ على هدوئي، ووقفتُ بنافذة غرفتي أتابعه، وأنتظر عاملتي نظافة بالمشفى كنتُ قد أمرتهما أن يأتياني بالسيدة إلى غرفتي دون أن يشعر بهما أحد، وإن يجلساها أمامي بعد أن يُهدِّءا من روعها

يوم أن مات أبي كنتُ في التاسعة من عمري، وكانت الريح على أشدها فطيَّرَت قمامة الشارع العريض وألقت بها أمام بيتنا، وكان عليَّ أن أمهِّد مكأنا لنقيم فيه صوأنا للعزاء؛ فحملتُ على عاتقي عبء كنسها وتنحيتها جانباً بعيداً إلا أن الريح كانت تطيرها ثانية وترغمني على الكنس من الجديد.

كان يراقبني من على مقربة جار لنا، فأوعز إليَّ أن أشعل النار في القمامة كي أتخلص من تطويح الريح لها، وألقى إليَّ بعلبة ثقابه.. العود الأول لم يشعل القمامة؛ فقد أطفأته الريح، والعود الثاني، والثالث كذلك، وفي الرابع أشعلتها، وراقبتُ النار بشغف وهي تزحف كالرقطاء لتلتهمها وتتحدى الريح بل تستمد قوة تأججها منها، للحظة نسيت حزني على موت أبي، وكأنَّ النار قد التهمته مع القمامة

بعدها أيقنتُ أن ما لا يجدي معه الكنس أولى به الحرق

سبقني الضئيل إلى معرفة الحقيقة

هو من ساق السيدة العجوز إليَّ واختبأ بعدما أشار لها عليَّ

كان على علم أني بارع في اثنتين..

انتزاع حقيقة ما يدور حولي، وإشعال النار في ما يستعصى عليَّ تقويمه

****

كنتُ أعلم أنَّ بي خبلاً؛ فأردتُ أن أتخصَّص في علاج المخبولين أمثالي

تخصَّصتُ في علاج الأمراض النفسية والعصبية عن اقتناع وحب، وسعيتُ من أجل العمل في هذا المشفى، ولما نلتُ مسعاي بعد عناء وهبتُها نفسي وأعطيتُها كلَّ مجهودي.. نجحتُ في علاج حالات كثيرة، وعلى يدي شُفيت حالات لم يكن يتوقع أحد شفاءها، رفضتُ عروضاً كثيرة للعمل بالداخل والخارج براتب يعادل أضعاف ما أتقاضاه بذلك المشفى لكنني رفضتُ؛ لرضائي بما أنا عليه

لم يكن يعترض وجودي في المشفى سوى مديرها العجوز المتصابي، وبالمناسبة لقب العجوز المتصابي أنا من لقَّبه به،

ودائماً ما كنت أقولها في وجهه حتى بات يتمني موتي، لا عدم رؤيتى فقط

لم يكن ما بيننا من خلاف ناشيء من فراغ؛ فهذا الرجل كان ضليعاً في العديد من المخالفات المالية بالمشفى، وسبباً رئيساً في وفاة حالات كثيرة كنتُ أجهل سرَّ وفاتها؛ فأعزوها إلى إهماله الجسيم

كثيراً ما شكوته إلى النيابة الإدارية، وقدَّمتُ فيه العديد والعديد من المذكرات والشكاوى إلى كل الجهات الرقابية.. لكنَّ الغريب أنه كان يخرج بالبراءة من كل الاتهامات التي كانت تُنسب إليه كما تخرج الشعرة من العجين.. كثيراً ما نصحنى العاملين بالمشفى بالابتعاد عن طريقه؛ فله ظهر قوي يركن إليه

عرفتُ مؤخراً بالصدفة ـتلك الصدفة التي تساق للإنسان مرة واحدة في حياتهـ أنه تاجر أعضاء بشرية، يستدرج المحتاجين بمعاونة سماسرة له بعدما يتَّفقون معهم على المقابل إلى المشفى لعمل عمليات التبرع وفي المقابل يستضيف الراغبين في زرع تلك الأعضاء ويعمل لهم عمليات الزرع بالمشفى،

صنع الضئيل فيَّ معروفاً وفتح عينيّ على الحقيقة بعدما واجهتُ المدير بكل هذا وأنكره أمام أعضاء مجلس إدارة المشفى، وأصبح موقفى أمامهم ضعيفاً لعدم وجود دليل تحت يدي

عرَّى الضئيل ظهره لى، وأرانى موضع عملية استصئال كليته التي باعها للمدير بعشرين ألف جنيه

أخذني من يدى وأراني الثلاجات المملوءة بالأعضاء البشرية والمُعدَّة للبيع للأثرياء والعرب، وأكياس الدماء التي يسحبونها من المرضى بدون مقابل ليبيعونها في السوق السوداء بباهظ الأثمان

أراني غرفة العمليات التي أُعدَّت للقيام بعمليات الاستئصال والزرع في غفلة من الجميع

اختلى بي الضئيل أخيراً، وعرَّفني أن الشيخ محمد عارف أدخلوه المشفى بحجة العلاج من أمراض الشيخوخة، وفي حقيقة الأمر أدخلوه ليزرعوا له كلى كان المتبرع بها (أبو كريمة)

قال الضئيل لي أنَّ جسده لفظ كلى (أبو كريمة) وساءت حالته أثناء إجرائهم عملية الزرع، وكان على القائمين على أمر العملية أن ينقلوه بأسرع وقت في سيارة الإسعاف إلى مشفى آخر عالي الإمكانيات وأكثر تخصصاً، وفعلوا ذلك بكل دقة وهمة عاليتين،

وأنقذوه.. بينما (أبو كريمة) لقي حتفه، تركوه ولم يعيروه اهتماماً، لم يخيطوا جرحه حتى، وعادت زوجه من حيث أتت دون أن تعلم مصيره

قال لي الضئيل:

- عندك خمسة مرضى تُشرف على حالاتهم سُرقت كُلياتهم وأنت لا تعرف عنهم شيئاً

قال أيضاً:

- لا تعتقد أن مجلس إدارة المشفى لا يعلم عن ذلك شيئاً، إن مجلس الإدارة على علم بكل شيء، وأسَّس ذلك المشفى لهذا الغرض بالذات

قال أيضاً:

- إذا لم تستطع القيام بشيء فكن ضئيلاً مثلي واسكت وانعم بالسلامة، وإياك أن تطرق باب القانون؛ فحماة القانون هم أنفسهم شركاء في ذلك المشفى

ذات يوم وضعتُ عيني في عين الشمس وتركتُ آشعتها تدبُّ أطرافها في تلافيف عقلي؛ فتوهَّجَت فيه الفكرة

فار التنور

ثار البركان فألقى حممه

فككتُ أساور أقدامي

اتبعتُ آثار خطواتي إلى عالم سفلي لا تعرف الشمس إليه سبيلاً

درج سلم

ممرات لا تمر بها إلا ريح شيطان وأجساد ساقتها الحاجة وقادها العَوز لتبيع أماناتها

غرف مظلمة خنقتها بلمباتها النيون حينما أضئتها

حطمتُ الثلاجات فارتطمت بالسقف برودتها

حررتُ أرواح المنهوكين المنتهكين

بعثرتُ الأمانات فدمت أمام عيني

سكبتُ الجاز بطول الغرف وعرض الممرات وارتفاعات الدرج

وأخرجتُ أعواد الثقاب، وأشعلتُ الواحد تلو الآخر، وألقمتُ النيران حواشي العالم السفلي للمشفى

وتركتُ عيني تتأملها كما تأملتها أول مرة وهى تأكل القمامة

وقفت منتشياً

أجيج النار يطربني

عنفوانها يشفي الغليل في قلبي

حينما قبضوا عليَّ

كان كل شيء رماداً تذروه الريح

وكانت الابتسامة على وجهي تعكس السلام النفسي بداخلي

****

قال:

- لا تتركني يا صديقي وترحل، لن يفيدك الهرب.. أمثالنا لا مكان لهم بالخارج.. نحن مخبولان ووجهان لعملة واحدة وقصتنا واحدة ،وسيأتي إلينا طبيب ثالث تشبه قصته قصتنا.. أنا فعلتُ فعلتك تلك من قبل وأحرقتُ الغرفة وحاولتُ اللحاق بالقطار الذي تجري قضبانه خلف المشفى لكنهم لحقوا بى وأعادوني إلى هنا ثانية.. صدِّقني يا دكتور، لا مكان لنا خارج أسوار المشفى
- اتركني يا دكتور، اهرب.. أستطيع الهرب وهم منشغلون الآن في إطفاء الحريق الذي أشعلته في غرفتنا.. الضئيل رتَّب معي كل شيء
- الضئيل هو من سيعيدك، لا تصدقه، لا خير في مَن أعطاه الله الضآلة
- اتركنى يا دكتور.. القطار سيمرُّ بعد دقائق.. من الممكن اللحاق به إن تركت قدميَّ

هذا الذي يحاورني كان نائماً على بطنه على أرض الغرفة ممسكاً بكلتا قدميّ متشبثاً بهما لئلا أفلتهما منه وأجري، وكانت النار التي أشعلتها في غرفتنا تزحف نحو الأشياء ببطء كأنها تنتظرنا أن ننهى حديثنا هذا ونحسم أمرنا، كان هذا الرجل طبيباً يسبقني في العمر والعمل في هذا المشفى بخمس سنوات وسبقني في معرفة حقيقة ما يجرى به بسنتين، حاول خلالهما فعل كل ما في وسعه لكشف خبايا هذا العالم لكنه فشل وانتهى به الحال أن لفقوا له قضية، واستطاعوا إثبات الجنون عليه، وطلبوا من المحكمة إيداعه لديهم كي يصبح تحت أعينهم فلا تفلت منه كلمة أخرى، ومن وقت أن تم إيداعه بالمشفى وهو حبيس تلك الغرفة التي حبسونى فيها معه بعدما قدَّموني للمحاكمة بتهمة حرق المنشآت والممتلكات الخاصة، واستطاعوا أن يثبتوا أني مريض بالبرومانيا، وما فعلوه معه فعلوه معي.. حاول الهرب كثيراً، لكن الضئيل كان يشي به ويُعيده بعدما يوهمه بالمساعدة، كان الضئيل يحبه ويعرف مصلحته أكثر منه ويعرف أنَّ هذا المكان آمن بالنسبة له، وما عداه خطر عليه

على الباب الرئيس للمشفى كان الضئيل ينتظرني بعدما حثَّ حارسيه على المشاركة في إطفاء الحريق

أعطاني مبلغاً من المال، وحثَّنى على اللحاق بالقطار، وحثَّنى على الهروب من البلد كلها وألا أعود هنا ثانية، ولمَّا هممتُ بالخروج، قال لي إنه يريد أن يندسَّ في حضني، واقترب مني واحتضنني بصدق وهمس لى، قائلاً:

- أنت الوحيد الذي لن أشي به ولن أعيده إلى هنا ثانية حتى لو قطعوني إربا.. ارحل.. الحق بالقطار..لا تدعهم يلحقون بك

وخلع نفسه من حضني ودفعني بعيداً، فأسلمتُ للريح ساقيَّ ونهبتُ الطريق نهباً حتى صرتُ على جانب من قضبان القطار وفي ظهري السور الخلفي للمشفى وعلى مقربة مني مزلقان يُهدِّئ القطار من سرعته عنده فيستطيع الواقف ركوبه

****

- من أنا..؟ من أنت..؟ ما اسمى..؟ ما اسمك..؟ من أتى بنا إلى هنا..؟ ولماذا نحن في قطار..؟ يا ولد أجبني عن سؤال واحد

- عمري سبع سنوات وأنت من قلت لي عن عمري

- أنا؟

- نعم، أنت

بعدما طرق باب كابينتي وانتشلني من بين الأوراق دعاني أن ألبس ملابسي في عجل ونذهب معاً لإحضار طعام من خارج

المحطة.. قال لي احملني على كتفك كما كنت تحملني من قبل. كان لتلك الجملة صدى في أذني ذكرني بما قرأته في إحدى الأوراق ولما حملته وهبطنا من القطار دار هذا الحوار السابق بيني وبينه كانت محطة القطار هادئة ترمي أعمدة نورها المعدودة هزالة أضوائها على طول أرصفتها، قال لى:

- سيؤذن حالاً لصلاة المغرب

نظرتُ للسماء فإذا بالنهار يتلاشى تُكِّنسه المغارب من صفحة السماء، وترش قطع الليل تمهيداً لتضخمها.. وهناك كان القمر قد أطلَّ، وكان الأذان قد رُفع فملأ المدى

- القمر يردد الأذان خلف المؤذن
- يا سلام.. من قال لك ذلك؟
- أنت
- أنا؟
- هيا أسرع، ماعاد أمامنا وقت.. هذا هو المتجر الذي سنشتري منه احتياجاتنا، هات لي الكثير من الشيكولاتة، وامسك هذه النقود

كان شارعاً عريضاً أمام المحطة عبرناه إلى المتجر المواجه لها، ولما أخذت منه النقود بدر إلى ذهني أن أسأله عن مصدرها، إلا

أنَّ رجلاً مرَّ من أمامي استرعى انتباهى وصرف ذهني عن السؤال

كان الرجل ضخم الجثة.. أناقة ملابسه زادته هيبة على هيبته، يمسك في يده اليسرى سوطاً، وفي اليمني حقيبة منتفخة، خُيِّل لي للحظة أن بها رأس إنسان لا أعرف لمَ خطر لي هذا الخاطر، انتفضتُ وتملكني الخوف، فإذا بالولد يقول لى:

- أسرع، لم يتبق أمامنا وقت نريد أن نشتري احتياجاتنا.. دعك من هذا الرجل ولا تخف هكذا، إن الرأس التي بحقيبته رأس إنسان.. لا داعى للخوف، طالما أنا معك وأعتلي كتفك فلا تخشى أن يحصد أحد رأسك
- رأس إنسان..! من هذا الرجل؟ ولماذا يفعل ذلك؟ وكيف عرفت ذلك؟ أجبني يا ولد
- يووووه.. سيفوتونا القطار وإن فاتنا سيحصد هذا الرجل بسوطه رأسي ورأسك، هيا أسرع

اقتحمتُ المتجر في عجل، وبخفة يد وضعتُ أشياء كثيرة في أكياس بلاستيكية، وأعطيتُ صاحب المتجر نقوده، وأطلقتُ للريح ساقيَّ إلى المحطة، كل همي أن أدخل كابينتي في القطار خشية أن يلحق بنا من كان يمسك بالسوط، حتى أني كدت أعصر قدميّ الولد

وأنا أحمله من قوة إحكام قبضتي، ولم أخفف منها إلا حينما صرخ متوجعاً

-٣-

لي لي..
أيُّ سماء أمطرتك فوق رأسي؟
أيُّ أرض انشقت وأنبتتك أمام ناظري؟
أيُّ امرأة أنت حتى تخرجيني من داخل نفسي إلى عالم لا قِبَل لي به؟
(أنا الساكن دوماً داخل نفسى لا أخرج منها إلا إليها
لا أعرف من الأشياء إلا ظاهرها، أما باطنها فغضضتُ الطرف عنه
أنا هذا البَنَّاء الذي ضرب سوراً حول مملكته الذاتية واحتمى في ظهره من نداءات العالم الحسية..
أنا الصانع من رغباتي جسداً مصلوباً على طاولة العمر السائر بي نحو اللا شيء لأضاجعه كلما استبدت بي حتى بِتُّ نافراً منها

أنا هذا الشارد عن قطيع العائشين على وجه العالم حتى جئتِ أنت كراع أمسك بيده عصى وضرب مؤخرتي فانتبهت حواسي واتبعت القطيع كجدي)

لماذا يا لي لي ارتديت عباءتك السوداء في تلك الليلة الشتوية؟

أي شيطان أوعز إليك بارتدائها..؟ ألم يكن في خزانة ملابسك غيرها؟

إن عباءتك يا لي لي علق بأطرافها الشبق

وعلى فتحة صدرها تمدَّدت الخطيئة تدعوني أن أنتصب

وهئتُ لك

وهئتِ لي

وتلاقينا نقذف الحرمان بتأوهاتنا

ونجتاح الأشياء بقبلات على شفاة لزجة

****

محكمة عابدين

الدور الثانى

نيابة قصر النيل

الممر المؤدي إلى غرفة التحقيق ضيق وطويل

تراص المتهمون على جانبيه

أسند من أسند منهم ظهره لجدرانه الباردة وهو جالس القرفصاء، وارتكن من ظل واقفاً منهم إلى جدرانه أيضاً، وكأنما الصنفان وجدا في جدران الممر خير من يرميا على عاتق طلائه الباهت مصائبهم، لمعت الأساور الحديدية في خفوت ضوئه بمعاصمهم، وحاوطهم رجالات الشرطة من كل ناحية، ووقف الشرطي المكلف بإدخالهم غرفة التحقيق يرتب أوراق محاضرهم كل حسب دوره في العرض على المحقق، ينادي على كل واحد منهم باسمه، ويُدني منه من حان وقته للمثول أمام المحقق.

قطعتُ هذا الممر أكثر من مرة ذهاباً وإياباً لإنهاء بعض الأعمال الإدارية بجدول النيابة، وفي إحدى المرات امتدت يد إلى نهايات إحدى رجليّ بنطالي تشده لتستوقفني، ألقيت نظري أرضاً لأتتبع مَن يشدني، فإذا بها يد امرأة أربعينية العمر، نهضت في عباءتها السوداء ونهض معها جسد نحيف بعض الشيء تجسَّم في عتمة العباءة الضيقة. صنعت المساحيق من وجهها الأعاجيب فوارت خلفها تجاعيد يلمحها المدقق.. عدلت من طرحتها الحريرية السوداء فانسدلت من أسفلها بعض خصيلات من شعرها الذي صبغته بلون ذهبي.. تميَّعت في كلامها، وقالت:

- من فضلك يا أستاذ.. هل من الممكن أن تحضر معنا تحقيقات النيابة؟

المبدأ مرفوض لكن الفضول دفعني لأسألها

- ما تهمتكم؟
- صدقني لا أعرف يا أستاذ.. كل ما أعرفه أني كنت بصحبة ابنة أختى

وأشارت إلى لي لي، وسكتت برهة من الوقت ثم اكملت:

- وكان معنا أولاد خالتي الثلاثة

وأشارت إلى ثلاثة شباب في أعمار متقاربة تبدو أمارات الثراء على ملابسهم ووجوهم، كانوا يقفون بجوارها وفي أيديهم الأساور الحديدية، وسكتت مرة أخرى لبرهة من الوقت قبل أن تكمل قائلة:

- وأثناء تواجدنا بشقتي فاجأتنا مباحث قسم قصر النيل بالقبض علينا واصطحبتنا إلى القسم ومنه إلى هنا.. مالك العقار الذي أستأجر فيه شقتي هو من فعل بنا ذلك يريد أن يلفق لي تهمة ليرغمني على ترك شقتي

لم تقنعني روايتها تلك، لكن شيئاً ما يدفعني للتظاهر بالاقتناع، أعرف أن هذا الشيء هو لي لى التي تجلس هناك والتى شغلت

على الفور حيزاً من تفكيري، وفيما يبدو أن تلك المرأة فطنت إلى عدم اقتناعى بروايتها، فدلفَت إلى مسلك آخر لاستمالتي لحضور التحقيقات معهم. دبَّت يدها في صدرها، وأخرجت منه مائتا جنيه وأعطتهم لي قائلة:

- خذ يا أستاذ تلك أتعابي وأتعاب ابنة أختي.. ما رأيك سيعطيك كل واحد منا مائة جنيه..؟ انتظر سأجمع لك بقية أتعابك

والتفتَت إلى الرجال الثلاثة وأمرتهم بدفع المبلغ، فناولها كل واحد المائة جنيه خاصته.

للحق تناولتُ النقود منها في عجل كمن يختلس شيئاً ولا يريد عيناً تلمحه. راودتني ممنوعات سيادة المستشار الذي أتدرب بمكتبه ومن أهمها ممنوع العمل في قضايا الآداب، لكن الرغبة في خوض التجربة زجت إلى عقلي مبررات الدهس بقدم المال على ممنوعاته والخوض فوق أشلاء وصاياه، خمسمائة جنيه في أقل من ساعة لن أستغرقها في النيابة، وما الضير في ذلك؟

مائة وخمسون جنيهاً فقط لا غير أتقاضهم راتباً في مكتب سيادة المستشار طيلة شهر من الكد والجهد والتعب، والآن بين يديّ خمسمائة جنيه في بضع كلمات سأرميهم على مسامع وكيل

النيابة، وبعدها وأياً كان قرار النيابة سأنصرف لحالي، كثير من الأفكار التي خلَّفت بداخلي صراعات كما الريح عاتية داهمتنى في ثوانٍ معدودة بددتها في التو الحبال الصوتية الغليظة لأمين الشرطة المكلف بحراستهم.

- يكفى هذا يا أستاذ.. ابتعد عن المتهمين
- صباح الخير

عاجلته بصباح ألقى في نفسه ما دار بخلدي وأهَّل نفسه لتقبل ما سأدسه في جيبه الآن، التفَتُّ ناحية المرأة، وبحنكة المتمرس التي بالطبع كنت أفتقدها لكن الموقف ساقني إليها، فالمواقف في مهنة المحاماة هى التي تصنع شخصية المحامي، طلبتُ منها مائة جنيه إضافية لزوم مراضاة هؤلاء الشرطيين.

بدا لي أن المرأة ذات خبرة ليست بالهينة بتلك الأمور فقد بادرتني بابتسامة الموافق والمؤيد لما سأفعله والسعيد بأن أوقعني في شباكه، ودست يدها في جيب أحد الرجال بعدما خطت بضع خطوات ناحيته وأخرجت ما طلبته بمباركة منه ودستها في يدي.

وضعتُ المائة جنيه في جيبي واستخرجت بدلاً منها عشرين جنيهاً وأنا في طريقي إلى أمين الشرطة الذي لا يفصلني عنه سوى بضع خطوات وناولته إياها قائلاً:

- أريدك أن تطلعني على محضر الشرطة في عجل
- تحت أمرك يا أستاذ.. لكن هذا قليل، اعطنى ورقة أخرى مثلها.. ولا تبخل عليَّ فأنت موكل بالدفاع عن أناس يدفعون أتعاب لا بأس بها

ناولته عشرين جنيهاً أخرى فانفرجت أساريره عن أسنان طلاها النيكوتين حتى أعدمها تماماً. وأطلعني على المحضر ولم يبخل على شخصي المتواضع بمعلوماته القانونية ودفوعه التي سقتها إلى وكيل النيابة فأخلى سبيلهم جميعاً من سراي النيابة بضمان مالي.. لم تكن دفوعه تلك هى السبب في إخلاء سبيلهم فأنا أمزح، لكن محضر الضبط كان ضعيفاً مهلهلاً انعدمت فيه كافة الأركان المكونة لجريمة إدارة شقة لأعمال منافية للآداب.

استقبلني أمين الشرطة بعد قرار النيابة استقبال الفاتحين مهنئاً ومهللاً وكأنما أخليت سبيل عزيز له، ولم يتركني إلا وقد حشا جيبه بالعشرين الثالثة. أعطيته إياها على مضض وعجلة من أمري حتى أتخلص منه لأتفرغ لهؤلاء الخمسة الذين وقعوا في طريقي مصادفة.

التفتُّ إليهم فوجدتهم عدلوا هندامهم واصطحبوا المرأة معهم وودعوني شاكرين وهم يقفزون فوق درجات السلم مغادرين المحكمة.. لم أنس نظرات السعادة في أعينهم المدنسة بالرذيلة.

لكننى وجدتها أمامي تنتظرنى فقد رفضت عرضهم لاصطحابها معهم. وقفَت أمامي شامخة بعودها الفارع، متناسقة الجسد، لم يشذ منه قطعة تألقت كفراشة في تنورتها المجسمة الملونة وبلوزتها البرتقالية الأنيقة، لمعت عيناها ببريق أنثوى فتَّاك يغمرك بعبقه الساحر، استطال أنفها قليلاً فبدا رائعاً، وتوردت وجنتاها فاقتحم وجهها عالم الجمال بشدة.

- أنا عاجزة عن الشكر

خرج شكرها من فم صغير منمق الشفاه، تألق أمام عينيَّ عذوبته، وأكملت:

- ما الذي سيحدث بعد ذلك وما مصير هذا المحضر؟

- سيتحدد لنظره في جلسة أمام المحكمة المختصة.. وستصبح هناك قضية.. لكن لا تقلقي.. أركان الجريمة شبه منعدمة والبراءة إن شاء الله من نصيبكم

وسرنا نقطع الممر ناحية السلم ورحت أشرح لها كيف السبيل إلى البراءة حتى وصلنا عتبة باب المحكمة، وما أن تخطيناها حتى خلعت عنها عصابة رأس كانت تلفها حول رأسها ونمقت خصلات شعرها بيدها فتهدل على كتفيها كثيفاً أسودَ لامعاً كما قطع الليل، ودست عصابة رأسها في حقيبة يدها وأخرجت زجاجة عطر نثرت حباتها حول رقبتها فانتشت له نفسي. تزاحمت الأسئلة في رأسي وهممت أن أصبها على مسامعها لكنَّها لم تدعني أفعل، وطلبت مني رقم هاتف تصل من خلاله لي، فأعطيتها رقم هاتفي.

رمقتني بنظرة تركت في نفسي أثر حبات عطرها ومدت يدها لي لتودعني وما أن ألقت يدها الدافئة في كف يدي، حتى انتزعتها في عجل وتركتني وراحت تستوقف تاكسي كانت تتابعه من بعيد وما أن توقف أمامها حتى رمت فيه جسدها ورمت لي تلويحة وداع من يدها وراحت تغيب معه في أعماق الطريق المؤدي إلى ميدان الأوبرا.

ودَّعتها وتمالكت نفسي قليلاً وتركتُ قدميّ تحملني وتحمل شتات أفكار عنها برأسي إلى محطة المترو.

كانت الساعة الثالثة عصراً لو ذهبتُ إلى غرفتى سأتهالك على سريرها المتهالك وسأغط في نوم عميق لذلك قررت الذهاب إلى حى مصر الجديدة والجلوس في أقرب مكان من المكتب الذي أتدرب فيه حتى يحين موعدي.

وصلت أسفل المكتب، فوجدتُ أن غرفة سيادة المستشار مضاءة فعرفتُ أنه موجود بالمكتب، صعدتُ إليه فوجدته منهمكاً في قراءة أحد ملفات القضايا، حينما رآنى تعجب من مجيئي مبكراً ودعاني للجلوس ثم عاود انهماكه في أوراق الملف التي تناثرت أمامه وغطت سطح المكتب.

رحت شارداً أفكر، هل أبوح له عن أمر يومي وما حدث به، أم أستأثر بما حدث لنفسي وأتكتم الأمر..؟ لكن من المؤكد أني لو بحتُ له بأمري سيسعد بما فعلته في النيابة وربما نتطرق إلى حديث قانونى شيق أستفيد منه..

تنحنح سيادة المستشار وتململ من جلسته لكنه لم يرفع رأسه عن أوراق الملف وداهمني بقوله:

- ما أخبار سير العمل؟
- على ما يرام
- ليس من عاداتك أن تأتي مبكراً إلى المكتب.. ماذا ورائك؟

- أقسم أن لا شيء ورائي.. كل ما في الأمر أني تأخرتُ في المحكمة كثيراً فقلت بدلاً من الذهاب لأرتاح في سكني ويغلبني النوم آتي لأقرب مقهى من المكتب وأجلس به حتى يحين موعدي، ولمَّا وجدتُ أنوار مكتب سيادتك مضاءة صعدتُ إلى هنا.. هذا فقط كل ما في الأمر

رفع الرجل حاجبيه ناحيتي وتفرَّس وجهي وقرر أن يوقعني في حبائل فضوله.. وظلَّ يستدرجني لمواضيع شتى، حتى وجدتني أبوح له من أمر يومي وما حدث بالمحكمة، ولما فرغتُ من كلامي ألقى إليَّ بابتسامة هادئة ودعاني أن أدخل غرفة مكتبي وأستريح قليلاً حتى يأتي بقية الزملاء.

دخلت غرفة المكتب وما أن خارت قواي على كرسي المكتب حتى رحتُ في نوم عميق لم أفق منه إلا والساعي يوقظني ويقول لي أن سيادة المستشار يريدني، فركتُ عينيَّ وعدلتُ هندامي ودخلت مكتبه فإذا بي أجد زملائي مجتمعين أمامه.. ألقيتُ عليهم السلام وجلستُ ألتفتُ إلى سيادة المستشار، وفي هدوء أمرني أن أقصَّ على مسامعهم ما جرى معي في محكمة عابدين.. اعتدلتُ واستعدتُ ذاكرتي التي قوَّتها ساعتان من النوم، ورحتُ أقص لهم ما كان من أمري وكيف وقفت أمام وكيل النيابة وألقيتُ عليه

دفوعاً نارية أخلت سبيل المتهمين على الفور، وبالطبع تأنقتُ في كلامي وزدتُ على الكلمة عشر كلمات وتقمَّصتُ الدور جيداً

انتهيتُ من كلامي وسادت الغرفة لحظة صمت لم يعلق أحد على ما قلته ولم تدور مناقشة قانونية حامية عن الموضوع كما عوَّدنا سيادة المستشار وكما توقعتُ أنا.

- كم من الأتعاب تقاضيتها؟

تلعثمتُ قليلاً، ليس لأني لا أريد أن أبوح بما أخذته من أتعاب، ولكن لأن السؤال لم يكن في محله ولم يكن متوقعاً

- خمسمائة جنيه
- خمسمائة جنيه.. أرنى إياهم.. أريد أن أتطلع إليهم وأملأ بهم عيني

أخرجتُ كل ما معى من نقود وأعطيتهم له في تعجب من أمره، أمسكهم في يده وقلبهم يميناً ويساراً.. وراح يعدهم فوجدهم أربعمائة وأربعين جنيهاً

- أين الباقى؟

قالها سيادة المستشار وظلَّ يرمقني بنظره وكأنه يلح عليَّ كي أخرج باقي المبلغ من جيبي، نهضتُ غارقاً في تعجبي.. بحثتُ

في كل جيب خيط في ملابسي حتى عثرتُ عليهم في جيب قميصي وتذكرتُ أني قد اقتطعتهم من المبلغ وألقيتهم في هذا الجيب جانباً حتى أستطيع الغداء، وحالما أنتهي أحاسب دون أن أظهر أمام الأعين كل المبلغ، فأنا أخشى السرقة؛ فكثيراً ما سُرقتُ في محطات الأتوبيس والمترو.

- تفضل

ناولته الباقى كطلبه.. وجلستُ أرمق ماذا هو فاعل

اكتمل المبلغ في يده، فوضعه أمامه على المكتب.. وفتح أدراجه درجاً درجاً يبحث عن شيء حتى عثر عليه، أخرج مظروفاً أبيضَ صغيراً من المظاريف الخاصة بأعمال المكتب، ووضع المبلغ بداخله وأحكم إغلاقه، ثم أخرج قداحة من درج آخر وأشعل النار في المظروف!

التقطَت النيران أطراف المظروف في خفة لا مثيل لها وراحت تزحف ناحية قلبه كأسد يتضور جوعاً وأمسك برقبة فريسته وراح يستلذ بطعمها، ورحتُ أقف من هول الصدمة وأتضور حسرة على الخمسمائة جنيه..

أجُنَّ هذا الرجل..؟!

ماذا حدث لعقله ليحرق مبلغاً كهذا أمام عينى؟

- اعطِ الأستاذ كل مستحقاته المالية لدينا، وليترك المكتب حالاً ولا يأتي هنا ثانية فلم يعد له عمل لدينا..

قالها لمدير مكتبه دون أن يوجه لي كلمة واحدة، ودونما أن يعطينى مبرراً واحداً لما فعله، خرجتُ من غرفة مكتبه وكلى لهفة أن تنشق الأرض وتبلعني

التفَّ زملائي حولي يأنبونني، ليس على فعلتي ولكن على أني حكيتُ له من أمر ما كان معي وهو الرافض للعمل في مثل تلك القضايا.

خرجتُ إلى عرض الشارع المكتظ بالناس والضوضاء والأنوار الباهرة، أرمي حمرة وجهي لنسماته الصيفية لعلها تبرده، وتنفذ إلى قلبي الملتهب فتبرده أيضاً.

****

أنا هارب من الحياة في تلك الغرفة

مثلي كالهارب من وجه العدالة في بطن الجبل

الفأر لا يحتمل العيش بين جداراتها الكالحة

على عتبة بابها الخشبي تربع الشيخان قبالة بعضهما في هيبة ووقار

في عباءتيهما الآخذتان من السماء زرقتها بان وجهاهما كبدر رائق الضياء،

تبسَّما ودعياني أن أمرَّ على مهل من بينهما وأنا أحمل كل رصة من رصات الكتب التي تكدست بها جنبات غرفتي.. وما أن كنت أمرُّ من بينهما حتى أجد قبالتي باب دكان ذا براح كنت كلما دخلته لأضع ما بيدي وأخرج لأتطلع لواجهته لا أتبين في أيِّ مكان من العالم يقبع..

انتهيت من تحويل رصات الكتب إلا رصة راعني على وجهها بردية فرعونية لُفَّت بإحكام ورُبطت بخيط دوبارٍ متهالك، ما أن فتحتها حتى ذاب في يدي،

تمعنتها ملياً لعلِّي أتبين مغزى الرسوم التي بها.. ولمَّا لم أتبينها أشرتُ للشيخين

- ما هذا؟

لم ينطقا، لكنهما أشارا لي بأيديهم أن أعدل وضع البردية؛ فأنا أمسكها بالمقلوب..

عدلتها.. فألفتُ الرسوم وقد اتضحت بعدما تشكلت في هيئة رجل بزيٍّ فرعونيّ وله رأس صقر – حورس إله الشمس عند قدامى

المصريين- تألقت ألوانها في عيني فسررتُ بها ورحتُ أطويها كما كانت وأحكم ربطها

ودسستها في جيبي، وأخرجتُ آخر رصات الكتب، وعدتُ لأجد الشيخين قد تأبطا ذراعيَّ بعضهما البعض وفارقا عتبة غرفتي كان حلم نهضت منه منتشياً، مرتاح النفس، جائعاً..

أعلم أن أربعاً وعشرين يوماً من الرفت واللاعمل والانطوائية والتخبط النفسي كانوا كفيلين أن يأتوا على الأخضر واليابس في حياتي كلها لا غرفتي الشحيحة فقط، ورغم ذلك تقنَّعتُ الأمل، ورحتُ أتفقد آنيتى المبعثرة في زوايا الغرفة أتشممها لعلي أجد بقايا طعام كنتُ قد طهوته وقت الرخاء، لكني وجدتُ العفن قد سبقني وأتى عليها، لم يكن أمامي إلا الشاي والسكر صنعتُ منهما فنجاناً ورحتُ أرتشفه على لحم بطني

- كم أمقتُ الشاي على الريق.. يصيبني بالدوار ويقلب معدتي

أعانه الله، أبي عودني أنا وأخوتي عليه حينما كان الفقر يجهز علينا فلا نجد لقيمة واحدة تسد خواء أمعائنا.. كان ينادى أمي أن تأتي له بـ "براد" الشاي ويتولى (تلقيمه).. كان طيباً يصنعه خفيفاً حتى لا تميع أنفسنا، أما هو كان يتجرعه ثقيلاً كثقل

الدمعات الحبيسة بعينيه وهو ينظرنا جوعى حوله ولا شيء بيده ليفعله

كنت أشعر بدمعات أبي وأنفذ بداخله لأجد قلبه يتمزق لقطع، كل قطعة عند عيل منا، كنتُ أشرب الشاي وأنا أمقته حتى لا يتمزق قلبه أكثر، أظن أني مازلت أشرب الشاي إلى الآن إكراماً لقلب أبي رغم أن بيني وبينه محافظات.. إن الفقر له وجه أسود وأسنان سوداء، أظن أنه سيتجسد رجلاً وسيحاسب يوم القيامة من أجل أبي الطيب ذي اللحية البيضاء

تشكلت ملامح أبي أمام عيني، رحتُ أرتشفها شوقاً مع الشاي وأستدعي إلى أنفى رائحة جلبابه الساكنة به دوماً أدخنة "الراكية" التي كان يصنع عليها الشاي لنا.

أنا ابن أبي البكري الضائع بين أزقة الفشل، كان بودي أن أنقده عشرة جنيهات وأهبه لفافة تبغ فاخرة تنخر في أنفه وصدره "فتوزن نفوخه"، كان بي ود أن أرص أمامه أطباق لحم فقط، وأدعوه أن يلتهمها كلها لا يشاركه فيها كائن من كان، وأطبطب عليه قائلاً:

- كل يا أبي.. ودعك منا.. رم عظاماً أنهكها الجوع والفقر، فأنت فائت يا أبي ونحن آتون

لكن كيف ذلك وأنا من فشل إلى فشل ومن تردٍ إلى تردٍ..

- أنا ابنك الخائب يا أبي وأظنك ستموت قبل أن تأكل من كدي وجهدي شيئاً.. أمقتُ العجز كمقتي للشاي على الريق

رنين هاتفي انتشلني من مقتي ليلقيني على عتبات ملامح لي لي، أجترها بتريث لعلها تتشكل في مخيلتي كاملة وهي تحدثني وتدعوني أن أقابلها الآن، ولأمرها الضروري الذي ادعته ضربتُ لها موعداً يعادل مسافة الطريق..

فى الطريق إليها بتُّ أفكر، وفي ساحة الفكر دارت رحى حرب بين شتى المشاعر المتناقضة، وفي أتون تلك الحرب حدثتُ نفسي وحدثتني:

- لي لي تلك بغي
- لا، ليست بغي
- بغي وأنا من دافعتُ عنها وأخرجتها بكفالة من قضية وسأحصل لها على البراءة أيضاً.. أعلم علم اليقين أنها متورطة فيها
- كيف لكل تلك البراءة أن تكون بغياً..؟ كيف لمن تملك كل تلك الرقة والملائكية أن تكون بغياً..؟

- أقنعة.. كل تلك أقنعة.. البغي سيدة الأقنعة على الأرض
- ما الذى يشدني إليها..؟ لماذا أذهب إليها الآن..؟ كان من الأولى أن أرفض طلب مقابلتها.. يكفيني ما لاقيته بسببها
- شبق..
- لا ليس هذا بالضبط..
- تجربة مهنية جديدة
- ربما.. وأود خوضها
- وما يزيد حلاوتها وجود بغي كتلك
- لا ليست بغياً.. عقلي يأبى التصديق
- لن أعود ثانية للتفكير في كونها بغياً من عدمه، خلاصة القول أن شيئاً يسوقني نحوها لم أعرفه حتى بعد أن قابلتها

بعد أن ركبت المترو نزلتُ آخر محطاته بعد نصف ساعة من الزحام والحر ومن أمامها ركبت سيارة لها صندوق ذو سقف من الصاج حمل بداخله عشرة ركاب.. تلاصقت أجسادنا مرغمين.. تحملنا صعاب الطريق ومطباته وارتفاعاتنا حتى السقف وهبوطنا المفاجئ

ولمَّا توقفت السيارة في نهاية المطاف.. سرتُ على وصف لي لي بين زراعات على جانبي طريق ترابي لا استقامة له تطول، ولا التواءة فيه تقصر، وفي النهاية يصب بك في قلب عزبة

عزبة؟

أيُّ عزبة تلك؟

إنها قطعة من الأرض مغضوب عليها لفظها الكون خارج أركانه الأربعة،

سلمها للريح تطيح بها أينما تشاء، فألقتها هنا

ولأن الإنسان حينما يسوء حاله لا يجد غير المسميات كي يجمله بها

فسمى تلك القطعة من الأرض عزبه كما سميتُ مأوى الجرذان الذي أعيش فيه غرفة

بي عجز في خلق مسميات لما أراه أمامي الآن

هل تلك عشش، أم دور، أم بيوت، أم غرف؟

لكن ليس بي عجز في وصفها

البعض أُقيم من بقايا الحجر الجيري الأبيض فلا تجد حجراً كاملاً

والبعض الآخر أقيم من عروق خشبية غُرست في باطن الأرض، ولُفت جوانبها بالصفيح الصدئ المأخوذ من هياكل الغسالات والثلاجات وصفائح الزيوت..

إلا أنهما حملا على عاتقيهما سقوفاً خشبية الألواح مثقلة بالبوص والغاب والخرق البالية، فلا يطاول سقف الآخر ممرات العزبة وأزقتها الضيقة تشربت مياه الصرف حتى تكاد تشعر أن مصبات المجارير التي صنعتها الحكومة مؤخراً أسفل الأرض تحطُّ أحشاءها هنا..

هوام الأرض تطاردك فتسد عليك سبل النجاة من لدغاتها

أعرت كل من قابلته اهتماماً إلا الرجل الذي كان يجلس على بابه يغسل "المواعين" كما النساء، لم أشأ أن أحرجه بنظراتي

كل الوجوه لوحات للحاجة والعوز

أبحر في عيونهم، حتى قريتي تلك التي لا تقل بؤساً عمَّا أراه..

صورة طبق الأصل من العزبة، إلا أن الخلفية ريفية

وقفت لي لي تستقبلني على أعتاب باب يرتفع عن الأرض بمقدار درجتي سلم.. صعدتهما؛ فسلمَت عليَّ.. ومن ورائها نهض مستقبلاً ومحيياً "سيد كابو" -أخوها الأوسط- نحيل الجسد، كثيف الشارب، منحول الشعر، ثقيل اللسان، وأدخلاني وأقعداني

على سجادة متآكلة الأطراف، وأصرَّ سيد أن يضع خلف ظهري مسنداً.. وعدلَت لي لي من وضع المروحة الموضوعة على كرسي خشبي حتى تطوح الهواء ناحيتي

تربع سيد بجواري وأخرج من جيبه علبة سجائره، بينما نادت لي لي على ابن أخيها حسن ودعته أن يأتي لنا بالشاي

وتربعت بجواري حتى صرتُ بينها وبين سيد كابو إلا أني كنتُ أكثر قرباً من لي لي حتى أني شممتُ رائحة عرقها الممتزج بعطرها الذي شممته أول مرة قابلتها فيها

للعزبة قوانين وُضِعَت في غيبة من العالم بأسره

يزوِّجون أنفسهم بأنفسهم، لا مأذون ولا وثائق زواج، يكفي الإيجاب والقبول وعشة يضاجع فيها الرجل المرأة لتلد له أطفالاً، إن كانوا بنات فهذا الخير بعينه؛ فالبنات يأتون للأهل بمال كثير من التسول والدعارة والخدمة في البيوت.. وإن كانوا صبياناً فلا بأس، فمن سيحمي البنات ويصبح قواداً أو هجَّاماً وتاجر مخدرات.. كل شيء عندهم له حكمته

لا تعلم عنهم الحكومات شيئاً؛ فلا وجود لهم في سجلاتها لكنهم تحت أعينهم.. فهم وقود الفساد

يد الداخلية حينما تريد البطش بمعارضي النظام

وحينما يسعى ضباط المباحث نحو ترقية فإنهم يسعون للعزبة لتلفيق "ضبطية" كبيرة لأحد رجالها

هم كبش فداء الدولة العميقة

قال لي حسن بعدما ناولني كوب الشاي أنه قد كبر في السن ويريد استخراج بطاقة شخصية حتى يستطيع التحرك بحرية والالتحاق بعمل في أحد الفنادق، فهو يطمح للتغيير، ورجال الشرطة يستوقفونه كثيراً، وكثيراً ما يجرُّونه على القسم للتحري عنه حتى صار يقضى أغلب وقته في حجوزات أقسام الشرطة،

استعطفتني لي لي أن ابحث له عن حل

وألا أحمل هماً للمال

كل أولاد أخويها على هذه الشاكلة

قالت لي "لي لي" لو نجحت في ذلك ستكون فتحة خير لي؛ فالعزبة بأكملها تطمح لتعديل أوضاع أبنائها النشء

لم يمر الشهر وكانت عينا لي لي تلمع بدموع الفرحة حينما وضعتُ أمامها شهادة ميلاد حسن ووعداً في الغد أني سأصطحبه إلى القسم التابعة له العزبة لإتمام إجراءات استخراج بطاقة شخصية

أما حسن فقد كان لا يجيد القراءة والكتابة أمسك بشهادته ملياً وتأملها، كنتُ أنظر إلى ملاحة وجهه فألعن بدلاً منه وقاحة الحياة قال حسن ومازال وجهه في الشهادة وعيناه تلتهم سطورها ذات الخلفية الخضراء دون أن يعي منها أيّ حرف:

- أستطيع الآن التحرك بحرية دون أن يستوقفنى شرطي ويسألني عن إثبات تحقيق شخصية.. دون أن يقتادني إلى قسم الشرطة ليتحرى عني.. الآن لن أنام لحظة واحدة في أيِّ قسم شرطة ولن يتم ترحيلي من قسم إلى قسم ومن مديرية إلى أخرى ولن يشتبه أحد في اسمى مرة ثانية.. الآن أستطيع السهر في وسط البلد كيفما يحلو لي دون الخوف من أكمنة منتصف الليل.. من الآن أستطيع العمل في فندق(....)، عمتي، لا تنسي أخوتى، نريد أن نصنع لهم شهادات ميلاد حتى نلحقهم بالمدرسة وحتى لايفوتهم القطار مثلى، عمتي من الغد سألتحق بالعمل بالفندق كفرد أمن وسأدفع أتعاب الأستاذ

جُبل الفرد في بلدي على أن تصبح حياته مرهونة بكومة أوراق حتى صرتُ أُعظم للورقة أكثر من الفرد.. في بلدي كي تتحقق شخصيتك يلزمك إثباتها بورقة.. فإن كنت بدونها فأنت مشتبه

به.. بدونها قد تصبح قاتلاً وإدانتك مسطرة بكل الأوراق.. ربما تحمل آثام وخطايا رجل له أوراق تثبت هويته، ولكن حظك العثر قادك إلى أن تحملهاعنه.. أنت بلا ورق في بلدي كبش فداء لكل مساويء الإنسانية كابنتيّ محمد كابو شقيق لي لي الأصغر والذى يقضي حكم بالسجن عشر سنوات في قضية إتجار في مواد مخدرة لا شأن له بها.. كل علاقته بها أن رئيس مباحث القسم التابعة له العزبة قد اصطفاه لأن يحمل القضية على عاتقه وحده دون أيّ مقابل سوى نيل الرضا، ابنتاه إحداهما ست سنوات، والأخرى سبع سنوات، تركهما لحماً أحمر في لفافات خشنة بين يديّ أمهما وراح لينفذ حكمه بالسجن، ولمَّا ضاق الحال بزوجته تزوَّجت بعد أول سنة من صديق له كي يتكفل بها وبابنتيه

حملت لي لي على عاتقها عبء إقناع أم البنتين بعمل توكيل لي في القضايا كي أستخرج شهادات ميلاد لهما؛ كي تستطيع إلحاقهما بالتعليم، إلا أن زوجها لمَّا علم بالأمر رفض خوفاً من أن يكون ذلك قرينة لإثبات علاقة زواجها بمحمد كابو على حساب علاقة زواجه بها فيستغلها بعد خروجه من السجن ويستعيدها ثانية، ولمَّا باءت بالفشل كل محاولات لي لي لإقناعه بأن هذا لن

يحدث خاصة بعدما أنجبت منه أيضاً فقامت بتنحية أمر البنتين جانباً حتى فرغنا من باقي أولاد أخويها

شاع الأمر في العزبة وسعى رجالها ونساؤها نحو تقنين أوضاع أولادهم، وبدأتُ أستأجر مكتباً في الحي الذي أسكنه، أستقبلهم فيه وبدأتُ العمل في شتى القضايا المختلفة، وأصابني رواج كبير في عملي، كان الفضل فيه لـ "لي لي" التي روجت لي كثيراً خاصة بعد أن حصلتُ لها على البراءة في قضيتها

****

لي لي.. الجينز دائماً يليق بك، يحسم الأمر لصالح جسدك اللين يلتصق بفخذيك فأخالهما نبعان من لبنٍ رائب..

ليست العباءة السوداء وحدها من تليق بك

كنتِ تقفين وسط فتيات الفندق كملكة متوجة أحاطتها جواريها

كنتِ أروعهم

كنت أرمقك من عند الطاولة التي أجلستني عليها ببهو الفندق بعجب

لا أعرف ما الذى دفعني لتأملك حتى بات نظري لا يفارق موضعاً تروحين إليه

نصف ساعة وأعلم أن دوام عملك سينتهي وستأتين لمشاركتي الطاولة وتناول الغذاء الذي دعوتني إليه

كانت لي لي قد التحقت بالعمل في هذا الفندق منذ أن التحق به ابن أخيها إسلام والذى أتى لها بتلك الوظيفة كفتاة استقبال لا عمل لديها إلا أن تتأنق في الزيِّ الخاص والموحد لفتيات الاستقبال، وترسم بعضاً من الابتسامات وهي تستقبل رواد الفندق وتتمايل وهى تسبقهم بخطوات معدودة لتدلهم على مبتغاهم

- لي لي.. من هذا الرجل؟
- ثري عربي يسألني عن امرأة ترافقه طيلة نزهته بمصر؟
- .....
- لا شأن لي.. قلت له ذلك..
- .....
- ألا يعجبك اللحم المدخن؟ هل أستبدله لك بشيء آخر؟ لا يهمك شيئاً، لي نفوذ هنا في هذا الفندق ولي أفضال على الكبير والصغير هنا، وهم جميعاً في انتظار إشارة مني لتلبية أيّ مطلب
- .....
- للعلم.. عرض خمسة آلاف دولار لقاء اصطحابه أيّ امرأة

أجبتها لمَّا وجدت أن عدم ردي عليها ليس مناسباً:

- لذيذ جداً اللحم المدخن.. ليس من الذوق يا لي لي أن أرهق مضيفي بطلباتي، يكفيه استضافتى

بعد أن أنهت لي لي دوامها أتتني واصطحبتني إلى مطعم الفندق الكائن على جانب البهو الأيسر، وأثناء ولوجنا إلى داخله قابلنا رجل عربي لم أميز جنسيته الأصلية، بادرته لي لي بالتحية فقد كانت تعرفه؛ فسُرَّ الرجل لرؤيتها وتحسس ذراعها أمامي بوقاحة لم أدرِ مغزاها ثم قبض عليه وتقدم بها إلى الأمام خطوتين بعيداً عني مما اضطرني إلى التقهقر للوارء خطوتين كي أفسح لهما مجالاً لحديث لم يطل كثيراً، نزح بعدها الرجل عن لي لي قاطب الجبين متلون الوجه

- ما الذي دعاكِ لاستضافتي على الغداء اليوم؟
- لى ستة أشهر في هذا العمل، كنتُ أدخل هذا المطعم كثيراً.. كل مرة كنت أدخله أتخيلك تجلس جلستك تلك ببدلتك هذه تأكل أكلتك تلك اللحم المدخن.. وأنا أجلس أمامك جلستي تلك.. فقررتُ أن أحيل هذا التخيل لحقيقة وأدعوك إليه، ثم أليس من حقنا أن نعيش للحظة مثل

هؤلاء الخلق التي حولنا..؟ للحق لم أجد أجدر منك أن يجلس في مطعم كهذا

حمرة الخجل خضبت وجنتيها، وألقت ببعض رذاذها على وجهي، فتلاشينا أعيننا بالنظر تحت أقدامنا، ولكي تخلق لي لي بقية للحديث حتى لا تهرب منها اللحظة، قالت لي أن دعوتها تلك لا تساوى شيئاً نظير أفضالى عليها وعلى أخويها وأولادهما

- هل تعتقد أني تجنيتُ على أولاد أخي حينما نسبتهم لرجل غير أبيهم
- لا تحملي نفسك فوق طاقتها أنتِ حاولتِ كثيراً أن تنسبيهم لأبيهم لكن الظروف حالت دون ذلك.. ثم إن أخاكِ وافق على ذلك وبارك كل خطواتنا.. يا لي لي انظري لوضع ابنة أخيك، الآن أفضل بكثير من السابق، يكفي أن أصبح لهما شهادات ميلاد، وقبلت المدارس انتسابهما إليها.. أما مسألة أبيهما الحقيقى يكفى أن تفهم البنتان أن أباهما هو أخوكِ

قمتُ بتسوية أوضاع كل أطفال عائلة لي لي، لم أترك فيهم رضيعاً.. تبقَّى فقط ابنة أخيها المحبوس، إلى أن أتى يوم استطاعت فيه لي لي أن تصل لاتفاق مع زوج أمهما، كان الاتفاق

يهدف إلى أن ينسب البنتين إليه ويصبح والدهما على الورق، وفي الحقيقة لم يكن لديه مانع من أن يعرف البنتين حقيقة الأمر كله وحقيقة أبيهما الأصلى، فسَّرت لي لي هذا الموقف بعد ذلك لي بأنَّ البنتين كنز له، هما مَن سيأتيان له بالمال إن قدم أوراقهما في أيٍّ من الجمعيات الخيرية التي تساعد المحتاجين، فما فعله لم يكن لوجه الله وإنما لمصلحته

- هل تعتقد أننا بشر كسائر البشر، أم نحن خلقنا من طينة أخرى؟ اعذرنى، فأنا أقصدني وعائلتي ومن هم على شاكلتنا من أهل العزبة.. ولا أقصدك أنت.. أنت عالي الشأن والمقام

آهِ يا لي لي لو تعلمين أني لست عالي المقام ولا شأن لي لما كنتِ قلتِ ما قلتيه.. آهِ لو كنت تعلمين أني أتيت من قرية لا تختلف كثيراً عن عزبتك.. آهِ لو تعلمين أني لولا الطريق الذي فتحتيه لي لما كنت وجدتُ قوت يومي.. يا لي لي نحن وجهان لعملة واحدة يقلبها الزمن المجحف بين إصبعيه.. آهِ يا "لي لي" لو لم تكونى موصومة بالعهر

- رائحة اللحم المدخن تحفة.. أستطيع تمييز اللحم الطازج من غيره

- هل تعتقد أن مكاناً كهذا من الممكن أن يقدم لرواده لحماً فاسداً؟!

- لا أعتقد ذلك، كما لا أعتقد أن القدر من الممكن أن يهبنا فرصاً فاسدة

- لا أفهمك

- لي لي.. سألتك مراراً عن ملابسات القضية التي برأتك فيها ولم تجبنني

تنهَّدَت طويلاً قبل أن تجيب وقالت:

- أكسبت الحياة أمي قساوة طبع وجفاء.. دائماً كنتُ أبكي من أفعالها معي.. أبي كان يجالسنا طيلة النهار والليل وحوله كنا نلتف، كان دائماً غائب الوعى إلا عن سجائره المخدرة وعنا، إن غاب أحد من أخوتي أراه منتبهاً لمغيبه ويسألني عنه.. أمي كانت هى التي تنفق علينا جميعاً، كانت تخرج في الصباح ولا تعود إلا مع بدايات الليل، سألتها يوماً ما أن تأخذني معها إلى حيث تعمل، نظرت إلى بعينين قاسيتين ودعتني ألا أتعجل الشقاء والهم.. كنت صغيرة لا أعرف أن للعزبة قانوناً يحكمها، وكما أسمعك تقول القانون ينص على.. فإن قانون عزبتنا ينص في

أوله على أن يجلس الرجل بالبيت وتخرج المرأة للعمل، أي عمل.. لا يهم نوعه، المهم أن تأتي آخر اليوم بقوتها وقوت من تعولهم، قانون عزبتنا ينص على أن لا عيب في عمل المرأة، العيب أن تعود للبيت دون أن تحمل شيئاً على رأسها.. أتذكر أني في عمر السادسة كُسرت ذراعي وأنا ألهو مع الأولاد في أزقة العزبة وحاراتها، فقام أحد الرجال بعمل جبيرة لي وأخذ من أبي لقاء هذا خمسة جنيهات، ولمَّا عادت أمي من العمل وعلمت بما جرى لم تهتم لأمري كما اهتمت بأمر الخمسة جنيهات

يومها تفتق ذهنها عن فكرة.. أن تتسول بذراعي المكسور، وفي الغد كنتُ مع أمي في الشارع نتسول.. أتذكر أن من وقتها وحتى الآن وأنا في الشارع

ماتت أمي وأنا في الشارع لم ألحق دفنتها.. فارقنا أبي وأنا في الشارع لم ألحقه كي أثنيه عن عزمه، لا أعرف لماذا تركنا وهو الذي لم يكن يطيق فراقنا.. ومن الشارع ربيت أخوتي.

ذات يوم وبينما نتسوَّل بمقهى أنا وأمي قبل موتها استرعى انتباهها رجل ينظر لي بشبق وفي يده جنيهان

فضيان رفض أن يعطيهما إياها وانتظر حتى أفرغ أنا من استجداء عطف الجالسين ويعطيهما لي.. ولأن كل ما كان يهم أمي الجنيهين اقتربت مني وهمست لي أن أحصل من هذا الرجل عليهما بأيِّ طريقة.. ولمَّا هززت لها رأسي وسرتُ نحوه قالت لي بصوت خفيض.. اشترى يا بنت ولاتبيعي.. وحصلتُ على الجنيهين دون أن يمس هذا الشبق طرف جلبابي.. من يومها وأنا تعودت أن أشترى ولا أبيع.. امتهنت كل المهن التي تخطر ولا تخطر لك على بال.. ماشيت كل صنوف البشر من أدنى الطبقات حتى أعلاها.. اشتريت منهم ولم أبع شعرة رأس مني

أمي في لحظة ضعف أمام جنيهين ودون قصد وضعت لي قانوني الخاص..

قبل أن أصارحك بملابسات القضية الحقيقية دعني أسوق على مسامعك بعض المقدمات.. ليس معنى أن أمثالي ممن ولدوا في تلك الظروف المعيشية المنحدرة والتي تعتبر عزبتنا خير نموذج لها أننا كلنا بلا وازع أخلاقي، وأننا كلنا بغايا وعاهرات كما يظهر للعيان وكما تصفنا الناس.. أنا واحدة من الناس لم أكن يوماً بغياً أو عاهرة أو فتاة ليل

رغم ما يعتري كل أعمالي من شبهات أنا أتكسب المال من أعمال توصمني بالعهر، لكن الحقيقة غير ذلك.. يوم أن تم القبض عليَّ مع من رأيتهم يوم المحكمة كنا في شقة السيدة التي كانت معنا، تلك السيدة معروفة بيننا أنها تدير شقتها للشواذ والمثليين، تلجأ إليها الفتيات من أمثالي حينما تكُنَّ في حاجة إلى المال، كل ما يفعلنه أن يقمن بتهيئة المكان لرواده؛ طهي الأطعمة، وإعدادها، وتقديمها، وتنظيف الشقة، وكل تلك الأعمال لقاء ما نتقاضاه من أجر تافه.. وفي هذا اليوم وبينما كنتُ أقوم بترتيب الشقة داهمتنا المباحث وتم القبض عليَّ.. هذا كل ما في الأمر.. ولا تتعجب من جرأتي فأنت طلبت مني الحقيقة.. وأخيراً تلك مهنتنا وتلك أقصر الطرق لجلب المال..

***

الطفلة طفلتي.. أعرف ذلك، عيناها تشبه عينيّ.. لها إصبع بقدمها يعلو الكل ويسند على أخيه يشبه إصبعاً لي.. أنفها نسخة اشتقت من أنفى.. لكني لم ولن أعترف بها

كيف لي أن أصبح أبا لابنة من لي لي

لي لي لا شيء

لا تليق بي

لي لي كانت عذراء.. لم يفجر ينابيعها غيري

كانت عذراء قبل أن ترتدي عباءتها السوداء وتصعد إلى مكتبي في تلك الليلة الشتوية

عن يميني قطار يسافر عكس اتجاه القطار الذي عن شمالى وبينهما رصيف عريض مكتظ بخلق الله.. وأمامي وقفت لي لي لتثنيني عن عزمي في السفر..

حدثتني طويلا

حدثتني عن حبها لي وأنها غير نادمة حينما أعطتني نفسها

حدثتني عن فرحتها بابنتها

وذكرتني بمبادئي

لكن الغريب أنها لم تطلب مني أن استخرج شهادة ميلاد لابنتي

انطفأت لي لي.. لم تعد تلك المليئة بالحيوية والنشاط

صارت أشبه بالشحاذين والمتسولين.. فقد ولدت ابنتي بمكانٍ بعيد عن عزبتها وأخوتها

عيناها مليئتان بالدموع، وقلبي مليء بالجحود وعقلي مهتم بالقطار الذي أرحل فيه بعيداً

حينما جلستُ على مقعد بالقطار ونظرتُ من نافذته.. التقت عيناي بعينيها فنظرت لي بشفقة واستدارت لتسعطف رجلاً من المارين على الرصيف في أن يمنحها حق علبة لبن لطفلتي

لا أعرف لماذا خطر على بالي في تلك اللحظة سيادة المستشار وهو يطردني من مكتبه

****

- يا ولد من لي لي تلك؟
- لا أعرف
- لا فائدة منك.. منذ أن عرفتك وأنت تزيد تساؤلاتي تساؤلات ولا تكشف لي غموضاً أبداً بل إنك تضفي على الغموض غموضاً.. أنت نفسك غامض.. أنا نفسي يحاوطني الغموض كل ما حولي غامض.. ثم تعالَ هنا وأجبني.. كيف دخلت إلى هنا؟
- أنا لم أخرج حتى أدخل.. أنت رميتني على السرير وانهمكت في تصفح أوراقك تلك وتركتني أحدث نفسي وأتناول الطعام وحدي

- أنا متعب للغاية وأريد أن أنام.. تزحزح قليلاً حتى أتمدد على السرير بجوارك.. أشعر أنَّ رأسي ثقيلة والدنيا من حولي تدور
- تناول طعامك.. أنت لم تأكل شيئاً طيلة النهار
- لا شهية لديّ.. لا قابلية عندي لتناول أيّ طعام
- إذن لقد انتهى يومنا.. هيا بنا الآن ننهي آخر طقوسنا.. تعالَ كي نصعد فوق سطح القطار ونفعل ما نفعله كل ليلة
- وما الذي نفعله كل ليلة؟
- نصعد فوق سطح القطار
- كيف؟
- ليس لديك غير الأسئلة.. اتبعني وستعرف كل شيء
- اتبعك؟! .. إلى أين؟
- كُفَّ عن الأسئلة واتبعني، لقد مللتك من كثرة أسئلتك

نهضتُ وارتديتُ القميص والبنطال فصار الولد كقطعة لحم اشتقت مني وسقطت بجواري، وكالمنوَّم تركتُ له يداً يمسكها ليقودني حيثما يريد.. فتح باب الكابينة بحذر ونظر يميناً ويساراً ثم عاد ليغلق الباب ثانية وقال:

- مفتش القطار يمرُّ الآن، هذا ميعاد مروره.. دعنا ننتظر بعض الوقت حتى يصل للعربة الأخيرة ثم نخرج إليه.. ما رأيك في النوم..؟
- نم أنت ودعنى أقرأ بقية الأوراق لعلي أنتهي منها

-٤-

راحتاي تقطران بدمه
تنزان على قدميّ
دمه يزحف كالرقطاء نحو كل الأشياء
يباغتها كما تباغتني دوماً نظراته الأخيرة
يلدغها كما تلدغني عقدة ذنبه
تلك خيالات وأوهام
لعنات تطاردني أينما رحت
فى حزني عليه عقلي يتلاشى
أكاد أجن..
أتساءل دوماً:
- لمَ فعل بنفسه هكذا.. ولمَ فعلتُ به هكذا؟

صبيحة يوم انتحاره كانت الأحداث تتسارع.. تلهث.. تنبئ عن قرب كارثة

الدولار طاول حواف السماء بينما لفظ الجنيه أنفاسه الأخيرة

الأحوال تبدلت بين ليلة وضحاها..

ارتفعت أثمان المواد الخام لتهدد بوقف خط إنتاج وتسريح عماله

تكدست البضائع على أرصفة الموانئ؛ فلا مال يكفى لسداد جماركها

السوق يختل.. يتهاوى

لا أحد بيده طوق نجاة يلقيه إليك

طرق باب مكتبي؛ فطرق عندي باب الانتباه

دخل طويلاً.. هزيلاً.. نحيف الجسد.. له انحناءة بالظهر

كان في الخمسين من العمر إلا أني لمَّا انتبهت إلى تجاعيد وجهه أقنعتني أنها لهرم في السبعين

بعينيه انطفاء كانطفاء زجاج مصباح باهت عفا عليه الزمن، ترمي إليك نظراتها منكسرة توجع القلب

شد جسده وتنحنح كمن يستعيد ذاكرة صوته وقال لى:

- سيدي أريد زيادة راتبي.. أنا أعمل تحت إمرتك من خمسة أعوام مضت وإلى الآن لم أرَ زيادة براتبي، كل رؤسائي

وعدوني بذلك إلا أن الزيادة لم تحصل إلى الآن.. سيدي عندي عيال كثيرون.. والحال يضيق.. والغلاء يعصف براتبي الضئيل.. ولم أجد حلاً إلا أن آتيك مباشرة؛ فقد ضاقت بى السبل ولم يسعفني أحد

كل كلمة نطق بها هوت على أعصابي تثيرها

تشعل في نفسي نار الغضب

أنا أعانى ولا أعرف كيف سأدبر راتبه الضئيل الذي لا يعجبه ورواتب قرنائه وهو يقف أمامي يطالبني بالزيادة

انفجرتُ في وجهه

أشحتُ كثيراً بيدي

اندفع الدم يخطب أوداجي

قذفته بأقذع الشتائم

أمعنت في سبه

كدت أتطاول عليه بالضرب

طردته شر طردة

للحق لم ينطق ببنت شفة

لم يثُر

لم يحتد

لم يرد شتمته

كان من الممكن أن يفعل كل هذا وأكثر

لماذا لم يفعل؟

تباً للقمة عيش تهوي بصاحبها في غياهب الذل والهوان

تراجع للخلف يرمقني بنظراته المنكسرة

تراجع أكثر حتى طالت يده مقبض باب المكتب فلففه في عجل وتوارى خلفه وأغلقه

غاب عن ناظري وتركني أُخبط في كل الأشياء التي بالمكتب

جلست أهدئ من ثورتي

لم أهدأ؛ فشيطان الغضب كان قد أحكم قبضته حول رقبتي

شعرتُ بالاختناق

كانت نافذة مكتبي موصدة

نهضتُ ناحيتها أفتحها

كمن يستجدي الجود من لئيم

تعصلجت في يدي كأنها قد أبت أن تمنحني بعض الهواء

ولما لانت مفاصلها، وفُتِحَت ضلفتاها، جادت على صدري بالقليل من موجات الهواء الصباحية الحارة

كانت الشمس تلقي كل ثقلها على الفراغ المحيط بالمصنع، شردت في فضائها أنفث ما بي من ضيق

لحظات قليلة

وهوى أمام عيني جسد آتياً من السطح يشق طريقه ناحية الأرض

رميتُ نظري للأرض

فارتد إليَّ يحمل انعكاساً لجسد تخرُّ من كل شبر فيه الدماء

كان الصوت الوحيد الذي سمعته قبل صوت ارتطام الجسد بالأرض صوته يقول:

- يارب

****

كان جمال عبد الناصر في قصر الرئاسة.. وفي الجيش كان أبو السيد صولاً.. الله في السماء وعلى الأرض ناصر.

- أيها الأخوة المواطنون

حينما كان يصدح بها جمال عبد الناصر في خطابه كان قلب أبو السيد يزغرد.. يتراقص طرباً.. كما يتراقص مع كل أغنية للست أم كلثوم والصوت المفضل لديه شادية

إن تصادف وجوده جالساً بالمقهى وعبد الناصر يلقي إحدى خطاباته يا ويله مَن يتنفس، ويا ويله من لا يصفق حينما يصفق

له.. وإن كان في وحدته بالجيش لا يرضى عن تلفاز قائد الوحدة بديلاً ليشاهده فيه، كان حريصاً على سماع خطب الرئيس عبد الناصر كحرصه على صلواته الخمس..

- والله يا بقر يا أولاد البقر إن قال ناصر ارموا أنفسكم في "الرياحة" لأفعلها بنفس راضية دون أن أناقشه.. ناصر ولد زعيماً لم تلده ولَّادة

ناصر خاض حرب اليمن ضارباً بعرض الحائط كل الأصوات والآراء التي عارضته، وأبو السيد خاض حرباً ضد قائده الرافض لسياسات ناصر ولم يكن الأمر مرتباً بالمرة وإنما كان محض صدفة حينما وجد نفسه ضمن أول فرقة صاعقة تطأ بأقدامها أرض اليمن

أهلك أبو السيد وحده سبعة بيادات خلال العام الذي قضاه في اليمن.. كانت وعورة الدروب الجبلية وطبيعة الأرض الصلدة تنزع نعال بيادات الجنود نزعاً وكم أدمت أقدامهم

قتل عشرين رجلاً وساهم في قتل آخرين، وذات مرة كان سيُقتل لولا ستر الله.. لم يكن يدرى هو وثلاثة جنود أن هذا الرجل اليمني الذي يتشدق أمامهم طيلة أربعة أيام بوطنية ناصر وعروبته

يسوقهم للهاوية ويخطو بهم ناحية كمين أعده لهم مناصري الملكية اليمنية

فى قرارة نفسه كان يعلم أن حرب اليمن لا طائل من ورائها، أقحم عبد الناصر جنوده فيها دون داع، حمَّلهم فوق طاقتهم، لكنه ما كان يجرؤ أن يبوح بذلك، حب ناصر ألجمه وحب حكامنا مخيط على أفواهنا

(أبو السيد) لم يبكِ على شهداء اليمن كما بكى على شهداء النكسة.. كان مكلفاً بقيادة سيارة ولملمة أشلاء الجنود القتلى من عرض الصحراء وطولها.. يوماً ما عاد بجسد ضابط رافقه دون رأسه؛ فقد كان الضابط يجلس بجواره يحدثه عن ابنته الشقية التي سمَّاها على اسم أمه وأتت شظية وأطاحت برأسه.. ذات يوم آخر من أيام النكسة قُطع إصبع من أصابع (أبو السيد) العشرة ووقتها أبى أن يخرج من الجيش حتى يأتي بثأر إصبعه

ومات عبد الناصر وشعر (أبو السيد) بوجع في اليد التي بُتر منها الإصبع.. تأوه كثيراً، وهذي كثيراً، وظلَّت عيناه حمراوين من البكاء حتى تولَّى السادات مقاليد الحكم.. لم يحب السادات قط حتى بعد أن حارب وانتصر وأتى له بثأر إصبعه.. كان يقول أن ناصر لو كان حياً كان سيفعل ما فعله السادات وأكثر من ذلك؛ فناصر هو

مَن وضع خطة الحرب وأعدها لهذا اليوم لكن القدر لم يمهله الوقت للتنفيذ

فى عام ١٩٧٦ اتخذ (أبو السيد) قراراً بإنهاء خدمته بالجيش.. وخرج منه يوم أن أتيح له ذلك، ولمَّا سأله رجل كان يعرف عنه حبه للجيش: لمَ خرجت منه؟ أجابه بحدة: لقد مللتُ الحروب والدماء والشظايا التي طيَّرت رأس عمري.. ثم إن الجيش لم يعد له طعم بعد ناصر.. وكأن ناصر هذا كان صولاً يثرثر معه في الخدمات الليلية، وأكمل قائلاً:

- سأتزوج من أخرى وأنجب جيشاً أصبح أنا ناصره

****

أحد عشر عيِّلاً وزوجتان.. كوم لحم يا (أبو السيد) لم يخلف لك سوى الغربة والصحراء والليل.. كوم لحم خلَّفته لك سعاد وراجية، هاتان الضرَّتان، الأرنبتان، المتسابقتان دوماً في اثنتين؛ جرَّك إلى السرير، ونحل وبرك من كثرة هات وهات.

عملك السابق بالجيش أهَّلك لأن تحصل على عقد عمل في إحدى دول الخليج.. وسافرت بعدما اقتطعت الكثير من معاشك وقوتك وقوت كوم اللحم كي تدفع لمكتب السفريات ثمن العقد.

فى الغربة تصبح كل الأشياء صديقة للمغترب.. ومن الممكن أن تصادق فأراً في الغرفة التي ألقاك فيها الكفيل لمجرد أن يقطع عليك خيط الفكر والشرود ووحشة الغربة.. أما أنت يا زوج الاثنتين وعائل كوم اللحم صادقت الصحراء والليل وأغنية الست شادية

".. خايفة لما تسافر على البلد الغريب

آه تنسى إنك فايت في بلدك حبيب

مستني بأشواق تعباه تعباه... تعبان من الفراق

ومولعلك شمعة نورها مستنيك.. آه

وفي عيونه دمعة امسحها بإيديك"

وخيالات لياليك الخوالي مع زوجتيك الشهيتين، والتي لم تكتشف أنهما شهيتان إلا حينما لسعتك سياط الحرمان

أتذكر من أهداك شريط الكاسيت هذا الذي يحمل تلك الأغنية..؟ زوجتاك الضرَّتان اللتان لم تتفقا معاً على شيء كما اتفقتا على ابتياعه لك حينما أرسلتا بنتاً من عيالك إلى محل الكاسيت المفتوح على قارعة جسر البلدة التي استوطنتها بعد خروجك من الجيش كل واحدة حينما اختلت بك في ليلتها ظلت تكبُّ في أم رأسك أنها صاحبة فكرة الشريط وأنها تعشق الست شادية في تلك الأغنية

بالذات من أجلك.. وفي عمق المتعة أقسمت كل واحدة منهما عليك أن تتذكرها وأنت تسمع الأغنية على كاسيت حافلتك بعدما تسافر الله عليك يا (أبو السيد) وأنت تجلس على عجلة قيادة الحافلة الضخمة ذات الكابينة الحديثة المكيفة والمجهزة بكل وسائل الراحة والتى تجرُّ خلفها مقطورة هى فنطاساً كبيراً ضخماً هائلاً محملاً بالمواد البترولية القابلة للاشتعال، أسد في عرينه؛ فقوة جسدك، وبنيانك الهائل، وشاربك الكثيف تحت أنفك، وعيناك الواسعتان، وشعرك الناعم اللامع دوماً يصنعون منك رجلاً ذا هيبة.

الصحراء ممتدة أمام ناظريك بلا انتهاء، لا ملامح لها في الليل، وليل الصحراء له من السطوة ما تتهدل تحت وطأته كل ملامح الكائنات، لم تعجبك صحراء قط إلا صحراء سيناء.. صوت كاسيت حافلتك عالٍ.. يغتال صمت الصحراء وأنت تخترقها على مهل.. صوتك يناوش صوت الست شادية.. يسبقها أحيانا إلى بعض مقاطع الأغنية.. ويتماشى معها في بعض المقاطع.. ويتأخر في أخرى، نشوة عارمة تداهمك تبدو جلية على وجهك الذي تنفعل كل عضلة فيه مع كلمات الأغنية ومن الحين للآخر تروادك ابتسامات شبقة ناتجة عن فكر معين يعتمل بدماغك.. يا (أبو السيد) يا

شقى.. أيُّ واحدة من زوجتيك تتذكر ليلتها وأنت تسمع الآن الست شادية، أم راودك الحنين لكليهما.

فى تلك الليلة بالذات وقبل أن تستقل حافلتك اختليت بروحك وكتبت خطابين لزوجتيك بثثت فيهما شوقك وحنينك إليهما وأكَّدت عليهما أن يأخذا بالهما من كوم اللحم.. وشدَّدت عليهما ألا تذهب واحدة منهما إلى إهلها وتترك العيال للأخرى.. وشدَّدت عليهما ألا تتعاركا حتى لا تنالا عقاباً قاسياً بقطع شهريتيهما.. ولم تنسَ أن ترشدهما إلى الاقتصاد في المصاريف حتى تستطيع أن تشتري لهما قيراطاً في مدخل البلدة وتبني عليه داراً كبيرة رحيبة بالطوب الأحمر والخرسانة تسعهم جميعاً.. كان قلبك يشعر بشيء سيحدث في تلك الليلة وأثناء تلك النقلة.

وصدق حدسك يا (أبو السيد)؛ فبعد أن تجاوزت بساعة أول استراحة على الطريق المخترق للصحراء شعرت باختلال عجلة قيادة الحافلة في قبضتيّ يديك، فقد تلفت إحدى إطاراتها فانتحيتَ جانباً وتوقفتَ وتناولتَ من "تابلوه" كابينتك كشاف ضوء وهبطتَ إلى أرض الصحراء لتقف على الخبر وتستطلع الأمر..

لولا ضوء كشافك الهزيل ما كنتَ رأيتَ موضعاً لقدميك في عتمة الصحراء.. درتَ حول الحافلة الممتدة طولاً كي ترى أيّ إطار

تلف.. وأمامه وقفتَ ملياً تحدجه بغيظ وكأنك تسبه وتلعنه.. على إحدى جانبي الحافلة صندوق حديدي يحوي المعدات اللازمة لتغيير إطارات الحافلات فتحته بمفاتيحك وأخرجتَ آلاتك وشرعتَ في حلِّ صامولات الإطار حتى أخرجته من مكمنه ونحَّيته جانباً حتى تأتي بـ "الاستبن"..

عواء الذئاب في الصحراء يطوق جنباتها الأربع

يتنامى إلى مسامعك.. ويبث الحذر في نفسك

وقع أقدام مخلبية تنامت مع عواء الذئاب.. طرقت فيك باب الانتباه

تحاول تتبعها بإلقاء هزالة ضوء كشافك في كل الاتجاهات لعلك ترى جسداً لتلك الأقدام

مع اشتداد اقتراب الأقدام يعلو صوت عواء يعلن عن قرب هجمة وانقضاض

أنت تعرف جيداً يا (أبو السيد) هذا العواء؛ فأنت الداهس لتلك الصحراء طيلة سبع سنوات حتى بتَّ تعلم أين تطوح الريح ذرات رمالها

تناولتَ من صندوق المعدات قطعة حديد طويلة

وأرهفت السمع وبدأت تتطوح بقطعة الحديد في كل الاتجاهات وتدور فيدور معك ضوء الكشاف

حتى بان لك ما كنت تتأهب لملاقاته

ذئب يا (أبو السيد)

لامع العينين، ضامر البطن، طويل، عالٍ، برزت عظامه من اشتداد الجوع، أنيابه بارزة كبروز الليل البهيمي في قلب الصحراء

وقف قبالتك غير مبالٍ بقطعة الحديد

يحدجك بعينيه وينفث في وجهك عواءه المكتوم

ورويداً رويداً راح يقترب منك وأنت تتراجع ببطء ناحية كابينة الحافلة

فى تلك الساعة يا (أبو السيد) بدر إلى ذهنك شيئان لا ثالث لهما كوم اللحم تراءوا أمام عينيك.. عيل عيل وهم نائمون فوق بعضهم البعض وهم يتناتشون لقيمات الخبز من بعضهما البعض.. تراءوا أمام عينك على الرغم من أنك لا تتذكر أسماءهم كلهم، ولا تعرف تواريخ ميلادهم، ولا تعلم أيّ عيل أكبر من الآخر، وأيُّهم ابن سعاد، وأيُّهم ابن راجية

والشيء الثاني

قول كفيلك (أبو فهد) ممازحاً إياك كلما سألته:

- لماذا أنا بالذات الذي كلفتني بقيادة تلك الحافلة الحديثة المخصصة لنقل المواد البترولية وأنت عندك خمسة

وعشرون سائقاً غيري تتنوع جنسياتهم ما بين هنود وباكستانين وبنجلادشين وسودانين؟

- أنت يا (أبو السيد) مصري، والمصريون فراعين إن ألقيت بهم في النار فأطفئوها ببولهم وخرجوا إليك سالمين.. وأنا لا آمن رجل على تلك الحافلة إلاك؛ فأنت أهل للمسئولية.

هجم عليك الذئب لكنك طوَّحته بقطعة الحديد بعيداً عنك.. ورحتَ تعدو ناحية كابينة السيارة

الكابينة عالية كلما وضعت قدميك على درجتيّ سلمها انفلتت من سطوة الخوف.. لكنك عافرت ودخلت قبل أن ينقض عليك الذئب الذي نهض سريعاً وعاود الكرَّ عليك ثانية وشب كي يتبعك داخل الكابينة لكنك لحقت نفسك وأغلقت الباب بسرعة وقوة متناسياً أنَّ ذراعك الأيمن مازال خارجه فأغلقته عليه فانكسر وأدخلته إلى الكابينة مكسوراً وأغلقت الباب على جسدك كله وعلى ألمك وغربتك.

يوم ما يا (أبو السيد) خرجت في مظاهرة ضد الرئيس أنور السادات، وتمَّ القبض عليك وإيداعك بالسجن الحربي لمدة عشرة أيام لم ينتبه أحد لكونك رجلاً خدمت بالجيش سابقاً ولم يقدر أحد تضحياتك في حرب اليمن وما فعلته في النكسة وما أتيت به من

انتصار في أكتوبر وأوسعوك ضرباً، ولمَّا قلتَ ذات مرة لأحد سجانيك

- رحمة الله على جمال عبد الناصر

نغزك بعصا في نفس الذراع الذي كُسر الآن، وقال لك:

- دع عبد الناصر يخرجك من هنا

وفاجأك أحد المسجونين معك بقوله:

- لا رحمه الله، جمال عبد الناصر هو من فعل بنا ذلك وأرسى دعائم الظلم والاستبداد

لما استبدَّ بك الألم.. فرَّت من عينيك دمعات جرفت تلك الذكرى التي أرغمتك على السفر معها.. ولعنت البلد التي لفظتك بعدما أعطيتها من عمرك وجسدك ولعنت الغربة

****

لن يضع أحد يده في قلبه ليعطيك عطفاً، حتى امرأتك التي تتوسد ذراعيك، حتى ابنك الذي تتولاه طالما جيبك فارغاً.. جيبك هو خزينتك المفتوحة دوماً على مصراعيها طالما هى ممتلئة فلا تخشى شيئاً البتة ولن تشتكي من ندرة العطف، بل ستصاب منه

بالتخمة، أما إن خلا جيبك من رنين المال فاعلم أن لا خير فيك لدى الآخرين وليس مرحب بك أينما نزلت

آهِ عليك يا (أبو السيد) أوجعتني والله وأدمى حالك قلبي

قيراط الأرض الزراعية الذي اشتريته أتى على نصف مدخراتك من العمل سبع سنين.. والنصف الآخر راح في بناء الدار التي رفعت سقف نصفها وتركت النصف الآخر بلا سقف، منه للسماء يوم ما ارتديتَ عباءتك وخرجت لتستأجر من يدق لك طلمبة مياة بالدار كي لا تخرج حريمك خارجها طلباً لكوب ماء.. كانت آخر نقود بجيبك.. وعلى عتبة الدار قابلك عيل من عيالك آتياً من الخارج يطلب منك جنيهاً يشتري به حلوى، نهرت الولد فانزوى في ركن من البيت يبكي، وقبل أن ينزوي التقت عينك بعينيه فانتفضتَ لنظرته لك

كسر خاطره أوجع قلبك الميري

ألان صلابته

فتراجعت عن مخططاتك وحملت الولد على كتفك حتى البقال واشتريت له وللعشرة أولاد حلوى، ونقصت نقود الطلمبة الكثير من الجنيهات وازداد الإلحاح والطلب على دقها وكثر التذمر من انعدامها وباءت كل محاولات الاعتماد على المعاش في دقها

بالفشل وكان عليك يا (أبو السيد) أن تبحث عن عمل.. وكان العمل عندي في مصنعي

لا أتذكرك يا (أبو السيد)

لا أتذكر متى أتيت للعمل عندي

كل ما أتذكره تلك الحكايات

أعرف يا (أبو السيد) أنك لم تمت بكل الحروب التي خضتها، ولم تمت بأنياب الذئب في صحراء الغربة، وأعرف أن الأحد عشر عيّلاً مروا بخاطرك وأنت تهوي من سطح المصنع حتى الأرض

ارقد يا رجل بسلام فقد لفظتك الأرض التي دافعت عنها وقتلك من دافعت عنهم

ارقد بسلام واتركني أمثلُ للمحاكمة

حينما انتهيت عند هذا الحد من القراءة وجدتُ بضع صفحات مطوية ومكتوب علي ظهر إحداها "سري للغاية".. كنت قد قررت أن أنام بجوار الولد قليلاً لكن الفضول ساقني إلى معرفة فحواها؛ لعلَّ بها ما يسوقني إلى نفسي، وشرعتُ في إكمال القراءة..

-٥-

- أعرف أن المحامين لا يعيشون بدون القهوة
- ليس لهذه الدرجة لستُ من عشاقها.. وعلى كل من الممكن أن أتناولها معك
- إذن تعالَ معي لنكمل حديثنا في المطبخ
- كان الطريق شاقاً جداً من محطة القطار إلى هنا.. أنتِ تسكنين في آخر مكان في المنصورة.. لماذا تركتما القاهرة وأتيتما لتعيشا هنا أنت وابنتك؟
- بعد تنفيذ الحكم على بهاء بالسجن لم أستطع العيش بين الناس هناك.. تعرَّضت لكل أنواع الذل والمهانة بينهم؛ كانوا يتفننون في إيذائي، منعوني من شراء احتياجاتي من محالهم، كنت أروح حياً آخر غير الذي كنتُ أسكن فيه لأشتري احتياجاتي الأسبوعية كلها حتى لا نموت من الجوع أنا وابنتى؛ وكنتُ أدخل بها إلى بيتي سراً، كل همي طيلة الطريق ألا يراني أحدهم.. منعوا "هلا" ابنتى من اللعب مع أبنائهم، حتى الطفلة الصغيرة لم تسلم من إيذائهم.. كانت إذا نزلت إلى الشارع تتبعوها بالسباب.. هل

تصدق أنهم كانوا يسبونها قائلين: "يا ابنة الكَفرة".. كثيراً ما قطعوا عني المياه.. صاحب البيت الذي كنا نسكن فيه والذى كم عاونه بهاء في قضاء الكثير من أموره كان يخلع محبس المياه ويخبِّئه حتى لا أستطيع إعادة المياه ثانية.. كل النساء اللواتي كنَّ دوماً في بيتي تحوَّلنَ بين ليلة وضحاها إلى ألدِّ الأعداء.. انظر إلى شعري ماذا فعلنَ به.. لم يتبقَ منه إلا ما تراه.. كان طويلاً، وكثيفاً، وبعدما انفردت بي خمس نساء اقتلعنه من جذوره.. كان من المفترض أن ينمو ثانية.. لكنه أبى وكأنه قد حزن لحزني.. الأطباء يقولون لي حالة نفسية، وأنا أقول شعري جفت ينابيعه من الحزن لحالي.. من بعد تلك المعركة الحامية التي نشبت دون داعٍ.. فقط من أجل إذلالي، أغلقتُ شقتى بالقاهرة ونزحنا إلى المنصورة.. إلى حيث لا يعرفنا أحد.. ولا أعرف أحداً

- دعينا نشرب القهوة هنا بجوار تلك الشرفة، أشعر بعدم الراحة في الجلوس بغرفة الصالون
- أعلم أنها غرفة كئيبة.. كلما جلستُ بها تذكرتُ بهاء.. هو مثلنا لا يطيق الغرف الكئيبة.. كان الله في عونه، لا أعرف

كيف سيتحمل عشر سنوات من عمره مسجوناً في غرفة واحدة

- أنت صاحبة فكرة الإعلان عن ديانتكما؟
- نعم، وليتني ما فكرت.. راح بهاء ضحية إصراري
- أبك ندم؟
- كل ندم الأرض.. أحيانا أتسائل، لماذا حملتُ داخلي كل هذا الإصرار على إعلان ديانتنا على الملأ..؟ أين كان عقلي وقتها..؟ قال لي بهاء أن المجتمع لن يرحمنا، سيقف لنا بالمرصاد بكل ملله ونحله.. إنه مجتمع لم ولن يعرف للنضج والوعي سبيلاً.. من قِدم القدم وهو يفتقر لثقافة استيعاب الآخر.. قلت له وقتها وبحدة: علينا أن نواجهه ونوجهه لثقافة الاستيعاب.. علينا أن نلقي الحجر في المياه الراكدة ونترك الدوائر تتسع من حولنا.. أتذكر أنه ابتسم وقال لي: يا عزيزنى، إن المجتمع على استعداد أن يقبل مصافحة الشيطان وذوبانه في قلبه والعيش معه في سلام وتقبله كناصح أمين على أن يقبلنا نحن، يا عزيزتى مجتمعنا غارق حتى أذنيه في الطائفية وليس عنده أدنى

استعداد لالتقاط بعض من أنفاسه على شط السلام وتنفس نسمات التسامح

- هل كان بهاء يحبك كل هذا الحب.. لدرجة أن ينصاع لرغبتك في البوح ويضحى بمستقبله ويزج بنفسه إلى السجن وهو عالم ببواطن كل تلك الأمور؟
- من عند حبي أحب بهاء ما دان به.. دعني أقص على مسامعك ذكرى صغيرة ستخدمك في مسعاك كثيراً.. منذ خمس عشرة سنة التقيته في ندوة من ندوات الدكتور نبيل عبد السلام بالمركز العلمي خاصته بالزمالك، كانت الندوة تدور حول كيفية إقناع المجتمعات العربية بالمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث كما ينص ديننا، وتُدوولت الآراء بين الحضور، وقتها كان بهاء مايزال مسيحياً ولم أعرف لماذا آثر أن يسمع رأيي في الموضوع قبل أن يدلي بدلوه فيه على الرغم من أنه لم يرني قبل ذلك إلا في تلك الندوة.. وقتها تلعثمتُ في الكلام وراح يُخفى تلعثمي وينمِّق لي الكلمات ويُصلح خلفي، وأُعجب الجالسون أيما إعجاب برأيي، وبعد الندوة مباشرة تقدم مني بهاء وطلب مني الزواج دون مقدمات، وقتها وافقتُ دون مقدمات

أيضاً، وخرج بهاء من المسيحية إلى الإسلام لإتمام مراسم الزواج، عانى بهاء كثيراً من أهله.. لكنه استطاع بهدوئه وتسامحه أن يخمد ثورتهم ضده وبعدها بقليل أعلننا وسط عائلتينا ديانتنا الجديدة وخضنا معركة شرسة ضدهما استطاع بهاء الانتصار فيها.. بهاء الآن يخوض معركته الكبرى ضد المجتمع لكني أظن أن المعركة مختلفة ولن تكون نتائجها في صالح بهاء ولا صالحي.. أعلم أن القانون يجرم إقامة محافل دينية.. وأن الاصطدام مع السلطة بهذه الطريقة التي اتبعها بهاء كانت أكبر خطأ.. المعركة الآن ليست في صالحنا

- النقض تم رفضه والموقف القانوني صار للأسوأ
- هل أعد لك الغداء..؟ أراك جائعاً..
- أنتِ تريدين البكاء.. ابكِ أمامي.. لا داعي للهروب إلى المطبخ للبكاء... أنا لا أريد غداءً.. ابكِ يا سيدتي ربما يخفف عنك البكاء كثيراً

"فو نفسه المحبوب ما اردت أن أكون رئيساً لمن على الأرض بل ألقي عَلَيهم ما أمرت به من لدن عزيز جميل".. الكتاب الأقدس

كلمات كُتبت أسفل صورة متوسطة الحجم لرجل معمم استطالت ذقنه البيضاء حتى صدره وعُلقت بغرفة الصالون التي ملأتني كآبة حينما استقبلتني فيها السيدة زوجة بهاء.. كانت الغرفة ذات أثاث فاخر ولوحات زيتية معلقة على جدرانها بتناسق غريب، إلا أن كآبتها لا تعرف لها سراً.. بالمناسبة كل أثاث البيت فاخر ينم عن مستوى اجتماعي لا بأس به

تركتُ السيدة تبكي قليلاً مع نفسها وتلقي بنظرها ناحية البناية الجديدة التي تقابل الشرفة بينما أشعلتُ سيجارة ورحتُ أفكر قليلاً بهاء سجن من أجل دفاعه عن دين اعتنقه لا شأن لي إذا كان ديناً من عند الله كما يزعم أم ديناً وضعياً من لدن البشر كما يقول لي رجل الجماعة الإسلامية التي موَّلتني من أجل أن أورط بهاء في القضية.. بهاء في تحقيقات النيابة العامة دافع عن معتقداته الدينية بشراسة أربع ساعات من التحقيق لم يكف عن الدفاع حتى ظننتُ أن المحقق بدأ يقتنع بأفكاره، كل ما فعلته أني بدأت أسرب كل تفاصيل القضية للإعلام وفي الخفاء استطعتُ تسليط الضوء على أحداث سير القضية وصنعتُ جبهة مناهضة لي ولبهاء تولى زمامها رجال الدين الإسلامي والمسيحي.. وثار الرأى العام وقامت الدنيا ولم تقعد.. من السهل جداً اثارة الرأي العام في

القضايا الدينية.. خاصة في المجتمعات التي ترفل في زيف السياسيين، وارضاءً للرأي العام حكم على بهاء بالسجن عشر سنوات ونلتُ أنا من الشهرة ما لم أنلها في قضية أخرى، وكان عليَّ أن أكمل رغم انتهاء القضية وانحسار الأضواء

سيدتي باقٍ ساعة على موعد القطار.. سأفارقك الآن

أقدر مجهوداتك منذ أن توليت الدفاع عن بهاء.. وكل أعضاء المحفل يقدرون مجهوداتك ويبدون رغبة قوية في التعاون معك بشأن أمورهم القانونية

الجماعات الدينية في مصر المسلمة والمسيحية تُحكم رقابتها عليكم وتقلب مؤسسات الدولة ضدكم يريدون وأد كل دين آخر في مهده

نعلم ذلك ونحن بصدد التحرك لعقد مهادنات مع الكنيسة والأزهر..

في القطار سيقابلك السيد نصيف ويترك لك حقيبة.. ادرس ما بداخلها جيداً من أوراق وحاول أن تنفذه خلال الشهر القادم

على الجميع أن ينتبه للقادم.. كلمات قرأتها في إحدى الروايات لا أعرف في أيِّ سياق وردت، ولكنَّها أعجبتني ورسخت بعقلي، ربما لأنها تمثِّل منهجي في الحياة، فأنا دائماً ما أنتبه للقادم وأعمل له ألف حساب

****

أيُّ سرية في هذا؟

تعجبتُ وقلتُ ذلك لنفسي، فلم أجد بالأوراق ما يدعو للسرية..

شرعتُ في القراءة ثانية إلا أني توقفت حينما سمعتُ الولد يهذي وهو نائم

أمي لا تتركيني وحدي.. خذيني معك

كانت الدموع على خديه.. مسحتها عنه بيدي وطبطبتُ عليه لعله يستيقظ، لكنه كان غارقاً في النوم فتركته نائماً وعاودت القراءة.

-٦-

حارتها التي تسكن فيها ضيقة ضيق صدرها بحزنها، تبدأ وتنتهي ببيوت ثلاثة على اليمين ومثلهم على الشمال، وبيت أعطاها ظهره فسدها، وحجب عنها الشمس، واستأثر بالهواء وحده، ووقف بيتها في آخر الحارة على يمين الداخل إليها قديماً قدم الحي كله، ترك الزمان آثار عبث أصابعه على جدرانه فآلها للسقوط.

كان ذو طابق واحد لا ثاني له.. حمل على عاتق سقفه عشة كلب شيدها زوجها من زمن لا تتذكره قبل أن يموت متأثراً بشيخوخته، لمَّ ألواح خشبها من الطرقات، ودقها دقاً قاوم خلخلة الزمن لها،

ورص البوص والغاب رصاً على سقفها لم يترك منفذاً فيه لقطرة من مياه الأمطار، وغطاه بالخرق البالية وغلف الألواح الخشبية بمشمع غليظ الجلد حتى يحمي الكلب من ضربات الريح ولسعات البرد وتسلل آشعة شمس الصيف الحارقة، وافترشه بجلباب قديم لها شقه نصفين وسوَّاه بمساحة العشة.

كان يحب الكلب كما لو كان ولده؛ فهو لم ينجب منها، وعاش ومات مقطوع الجذور، وتركها وحيدة لا أنيس لها، ولا أحد يأخذ بحسها إلا هذا الكلب.

لم تكن تحبه، فهو النجس الذي إن اقترب منها نهرته وقامت تغير ملابسها، وتتوضأ من جديد. وإن داعبها وتَمسَّح بها تنتفض وتهب تجري وراءه وهو ينبح أمامها ولا ينجيه من "مقشتها" سوى زوجها الذي من أجله أبقت عليه وأكرمته إكراماً لذكراه، وأخيراً.. فهو من "ريحته".

ألم فراقه كان كفيلاً أن يجعلها تبكي طيلة الليل، وشيخوختها التي ضربتها في مقتل كانت تحثها على هذا البكاء.. شاخت حتى لم تعد تقوى على صعود السطح لتضع للكلب طعاماً فكانت تناديه فيهبط إليها ضخماً مترهلاً يجرُّ أرجله الأربعة بالكاد ويجرُّ في ذيله حزناً

على صاحبه يعادل حزنها لو نطق لسان حاله لنبح بما في نفسه من حزن.

ذات يوم أتى مقاول كبير أراد أن يشتري البيوت التي في الحارة كلها كي يبني على أنقاضها برجاً كبيراً، وعرض أسعاراً بخسة على ملاكها إلا أنهم ظلوا يفاصلونه حتى أصبح عرضه مغرياً جداً فاغتنموه وباعوا له وهجروا الحارة الضيقة إلى المدن الجديدة والشقق الفارهة.

إلاها.. وكلبها..

رفضت أن تبيع وترحل مع من رحلوا.. أبت أن تترك أنفاس زوجها في جدران البيت وترحل.. أبت أن تترك ذكرياتها بحلوها ومرها وترحل، فهي التي كم خارت قواها وهي تساعده في بنائه.. وهي التي كم حملت طوبه على رأسها طوبة طوبة.. أبت أن تترك كل هذا وغيره وترحل بحفنة مال قلَّت أو كثُرت.

ساومها المقاول كثيراً وزج إليها بمن يقنعها ويثنيها عن رفضها لكنَّها أبداً ما تراجعت عن رأيها، حتى كلبها لم يثنه أحد عن نباحه الذي كان يطارد به كل من يأتيها ليكلمها في أمر البيع وكأنه قد فطن للأمر ووقف يساندها ويدعم موقفها.

خلت الحارة.. إلا منها، ومن كلبها، وحزنهما المطبق على صدريهما، ويأس المقاول من بيعها للبيت ورحيلها مع كلبها بأيِّ ثمن أياً كان حتى وصل الأمر إلى أن أصبح ثمن البيت خيالياً ضاهى أثمان البيوت التي بيعت مجتمعة، ووصل الحنق بالمقاول لأشده؛ فحاله كله قد تعطل ويريد أن يهدم البيوت ويشرع في بناء برجه الكبير، فساقه ذهنه إلى حيلة قديمة هى أن يرهب تلك المرأة لعلَّ الرهبة تأخذها وتبيع وترحل.. فساق إليها شابين احترفا البلطجة وأوعز إليهما أن يقتربا في منتصف الليل من بيتها ويقتحماه ويطبقا على أنفاسها في فرشتها ويهدداها إن لم تبع له البيت في أقرب وقت ممكن فسيلاحقانها حتى ينهيا حياتها قتلاً.. وراح الشابان ينفذا الخطة، واقتربا من البيت، وهمَّا أن يقتحماه لولا أن رأيا ما أذهلهما وأرعبهما وجعلهما يفيقان من البرشام المخدر الذي تناولاه قبل تنفيذ هجمتهما، وقف لهما الكلب شاداً جسده، رافعاً رأسه.. لمعت عيناه في الظلام لمعة غدر تخيف أعتى الرجال.. وراح يعوي عواء المستعد للانقضاض عليهما ونهشهما نهشاً، لكنهما كانا أجبن من أن يتحرك من مكانه ويكلف نفسه العجوز أن يعدو خلفهما فيكفيهما فقط نبحة واحدة قوية ما أن أطلقها حتى أخذا ذيليهما في أسنانهما وفرَّا من أمامه، نهضَت

هي من نومها تلاحقهما ببصرها الذي غابت قوته وهما يعدوان إلى نهايات الحارة الضيقة. جلست على عتبة البيت تشكو ضعفها وقلة حيلتها لمن أبقاها كل هذا العمر على وجه الدنيا، ووقف الكلب بجوارها وكأنه ينعيها همها وهمه هو الآخر غير مقترب منها وكأنه عارف بعاداتها التي تأبى ملامسته.. ولأول مرة في عمرها الذي تجاوز الثمانية والستين تفرد له ذراعيها وتحتضنه بشدة، اقترب منها في حرص واندس بين ذراعيها يعوي عواءً باكياً كطفل يبكي في حضن أمه ثم راح يجثو أمامها ينظر إليها كمن يبعث في نفسها الطمأنينة بوجوده إلى جوارها.

ظلا هكذا حتى اخترق الصباح كبد السماء وأنار الطريق لهما فنهضت تأوي إلى فراشها، أما الكلب فقد خرج وغاب طويلاً، ولمَّا نهضت ظلت تبحث عنه وتجوب الشوارع كمن فقدت ولداً لها، ولم تترك أحداً إلا وسألته عنه.. ولمَّا رجعت للبيت وجدته واقفاً أمام مدخله وبجواره جرو صغير يشبهه تماماً كأنه قطعة منه له نفس لون شعره وله نفس العينين اللامعتين وكأنه ابنه. لما رآها تأخر قليلاً وراء الكلب كطفل خجل منها، تعجبت من حركة الجرو وانحنت ناحيته تداعبه فرحة به حتى ألفها وراح يلف ويدور حولها كمن يلاعبها والكلب يتابعهما ويحاول مشاركتهما لعبهما،

وراحت تسأله من أين أتى به؟ ورسخ بداخلها ظن بأنه ابنه، حتى أنها فيما بعد كانت تقول لمن يسألها عن الجرو الصغير من أين أتت به أنه ابن الكلب، سرت بداخلها فرحة عارمة بهذا الجرو حتى أنها تعجبت من نفسها وهى التي لا تحب الكلاب أبداً، فماذا دهاها الآن؟ هل موقف البارحة هو ما جعلها تحب تلك الكائنات المخلصة التي اثبتت أنها بألف رجل وامرأة من بني الإنسان أم أن وحدتها جعلتها تغير رأيها وتلتصق بتلك الكائنات مستأنسة بوفائها؟

أطعمتهما.. وظلت تلاعبهما طيلة الوقت وأبت أن يصعدا لعشة الكلب أعلى سطح البيت، وأغلقت بابها على ثلاثتهم، وقضوا ليلتهم في غرفة واحدة توسدت هى سريرها وتوسدا هما الأرض متلاصقين، وراحوا في نوم عميق، وأفاقوا في الصباح على طرقات عنيفة تكاد تخلع باب البيت من حلقه.. نهضت فزعة تعدو ناحية الباب تفتحه والكلب وجروه يلازمانها خطوة بخطوة متأهبين لأيِّ رد فعل وكأنهما حملا على عاتقيهما مهمة حمايتها، فإذا بالمقاول وزمرة من حاشيته يرمون على مسامعها أنهم سيبدأون اليوم في هدم البيوت المجاورة لبيتها ويحذرونها من التواجد فيه لحظة الهدم خشية أن يسقط عليها فيحدث لها

مكروهاً، وقف الكلب يحرن ويطلق نباحات خفيفة كأنه يهددهم، وأخذ الجرو الصغير يحوم حول أرجلهم وكأنه أخذ تعليمات بذلك من الكلب حتى انتابهم الفزع وأخذتهم رهبة منهما، فكبوا عباراتهم كبا على مسامعها وراحوا يهرولون خارج الحارة بأكملها.

ساعات قليلة وكانت آلات الهدم تصطف على باب الحارة والرجال الذين سيقومون بالهدم جاهزون بفؤوسهم، وقدوماتهم، وبلطاتهم، وأجناتهم، وينتظرون فقط إشارة البدء من القائم على عملية الهدم.

كان هواء ذلك اليوم ساخناً يلفح الوجوه فيسيل عرقها ويبعث في النفس ضيقاً يخرجها عن طبيعتها، وكان الكلب وجروه الصغير قد بللا أنفسهما بالماء من طبق قد وضعته لهما ليشربا منه، وصعدا فوق سطح البيت، وراحا يتناوبان النباح مرة، ومرة أخرى ينبحان في نفس واحد حتى أن الرجال الذين شرعوا بالفعل في هدم البيوت لم يطيقوا النباح طويلاً وراحوا يطاردونهم ويحدفونهم بالطوب، ونشبت أولى المعارك بين الكلب وجروه والرجال القائمين على الهدم، فتارة يهربون من الرجال فيختبئون داخل البيت، وتارة يطورون أسلوب المواجهة فينزلون إلى عرض

الحارة ينبحون، ولمَّا يشتد عليهما الحصار وينهال الطوب على رأسيهما؛ يعاودا الدخول إلى البيت ونقل المعركة إلى سطحه، أما هي فقد جلست على سريرها تبكي لا تدري ماذا تفعل.

انتهى اليوم الأول من الهدم بين كر وفر من الكلب وجروه وبين سب وقذف بالطوب من عمال الهدم. وأتى اليوم الثاني يحمل ظهيرة ملتهبة كان عمال الهدم تحت لهيبها يعانون وكان الكلب وجروه يطوران أسلوب ثاني معاركهما معهم؛ فكان الكلب يصعد فوق الركام الذي خلَّفه الهدم مقترباً من العمال ويظل ينبح عليهم بينما يقف الجرو بعيداً عند مدخل البيت يتابعه، وكلما طرده العمال وأخافوه كلما تراجع قليلاً ثم عاد ثانية لنبحه إلى أن استشاط عامل منهم غيظاً وقام بقذفه بحجر كبير من الأحجار التي كسروها أثناء الهدم فارتطم الحجر ببطنه حتى أنه من شدة ارتطامه سكت للحظات ولم يقو على النبح ولم يقو على السير حتى والتقهقر للخلف من أمام العمال، وراح العامل يقترب منه ويضربه بقدمه في وجهه ليبعده أكثر.

كان الجرو يتابع، وفجأة اندفع ناحية العامل وكأنه يغطى على انسحاب الكلب ويعطيه فرصة كي يتقهقر من أمامه وراح يعقره

في قدمه ويفر هو والكلب من أمامه واختبئا في التفافة سلم البيت حتى جن الليل.

هب الجرو حائراً ما بين الكلب الممدد يئن وما بين العجوز التي أغلقت على نفسها غرفتها من الداخل، كان ينبح ويخمش بابها بأظافره، ولما لا يجد لها صوتاً أو حساً يعود للكلب ويدس رأسَه في رأسِه كمن يحثه على النهوض.. لكن هيهات فقد قضى الأمر وعرف كلاهما مصيره إلا هو..

تصدع البنيان

اتسعت شروخ الجدران

انفلق السقف وتهاوت حواملة

الجرو ينبح نباحه الأخير في وجه الباب لعلها تستيقظ، وفي وجه الكلب لعله ينهض وفي وجه السماء لعلها تجد له حلاً

لم تجبه إلا السماء.. أوعزت له أن يخلف أنقاض البيت خلفه ويفرُّ ناحية القطار القادم إلى محطته بعد سويعات

****

النهاية

كلمة كُتبت وحيدة بآخر ورقة بيضاء

بدت في وسطها كنخجر غرز في جنبي على حين غرة

انتهت الأوراق اللعينة دون أن تقدم لي جديداً.. أحداث وشخصيات قرأتُ عنهم لم يشيروا من بعيد أو من قريب لشخصي.. من أنا في هذه الأوراق..؟ أيُّ شخصية تشير لى؟ أيُّ حدث من كل تلك الأحداث مررتُ أنا به..؟ حتى القصص نفسها أشعر أنها لم تكتمل، ينقصها شيء.. شيء قصد كاتبها أن ينتزعه من الأحداث.. رأسي تضج بالأسئلة التي بلا إجابات

- يا ولد.. اصح لم يعد لدي ما أقرأه، لقد قرأت كل الأوراق التي لدي ولم أصل لشيء

نهض الولد جميلاً، بضاً، هائش الشعر، أكسبه النوم نضارة وجه على نضارته.. فرك عينيه وقال لى:

- ولن تصل لشيء.. نحن هنا كي نظلَّ ندور حول أنفسنا دون أن نصل لشيء.. هيا بنا نخرج للعربة الأخيرة من القطار ونعطي أصحاب التذاكر تذاكرهم قبل أن تطير رقابهم.. ثم نصعد لسطح القطار لعلنا نلحق بعضاً من الليل قبل أن يرحل، ونلحق بعضاً من حكاوينا.. وإياك أن تسألني عن شيء.. فقط اتبعني.. اتبعني دون أن تجهدني بأسئلتك

- ها أنا أتبعك.. ما عاد لي شيء أفعله غير أن أتبعك.. مَن يراك وأنت نائم تبكي وتنادي أمك أن تأخذك معها لا يراك الآن وأنت تفعل ما تفعله بي
- أمي.. كلمة أسمعها من الأولاد الذين ألهو معهم في القطار.. لم أنطقها في الحقيقة.. لكني أستطيع أن أنطقها في أحلامي.. أستطيع أن أصنع في كل حلم أماً وأجري إليها لتخطفني من على الأرض وتخبئني في أحضانها

الفصل الثانى

للصدأ رائحة

وللرائحة جسد تنبعث من مسامه

والجسد حديدى تشكلَت منه العربة الأخيرة من القطار

وأينما وجد الصدأ؛ وجد الوجه المعتل للحياة

حقائب من كل صنف ولون ضجت بها الأرفف الخشبية المتهالكة للعربة

أما المقاعد فحملت ثقل صمت المتكومين عليها

كانوا كُثراً متلاصقين

و كان الرعب قبيحاً.. يطلُّ من أعينهم

مفتش القطار كان أقبح خلقة من رعبهم، كان يقطع الطرقة الضيقة الفاصلة بين صفيّ المقاعد عاقداً يديه خلف ظهره في بزته السوداء ذات الأزرار الذهبية اللامعة.. كان صوته خشناً يصم الآذان.. يخلع القلوب من موضعها وهو يتوعد من لا تذكرة له بحزِّ رقبته بالسوط ورمي جسده أسفل عجلات القطار.

رجل السوط الذي رأيته وأنا أشتري الطعام مع الولد كان هناك..

أخلى لنفسه رفاً من الحقائب بعدما رفعها فوق أخرى وجلس عليه

يهز رجليه في سعادة ويضرب الهواء بسوطه كلما اشتد وعيد المفتش؛ فتنتفض أجساد المتكومين رهبة وفزعاً.

للعربة أبواب جانبية، وباب في الصدارة دخلتُ منه أنا والولد ووقفنا بعده بقليل يفصلها عن العربات الأخرى، عرفتُ من الولد أنه لا يدخل ولا يخرج منها سواي وسواه والمفتش ورجل السوط، وفي مؤخرتها باب مفتوح على الليل والسماء والقضبان.

علت نبرات الوعيد من المفتش وزادت طرقعات السوط في وجه الهواء وتضخم الرعب بكل الوجوه إلا وجه لامرأة هرمة بان لعيني لمَّا نهضت من مكانها غير آبهة لما يدور حولها، وراحت تدور حول نفسها في الطرقة كمن تدور في حيز رحب، وتردد قائلة:

- جنيدي.. أين أنت ياقلب أمك..؟ جنيدي يا ولدي

وقف المفتش أمامها يرمقها في ضيق ثم التفت عنها وأقبل ناحيتي ينقل نظره بيني وبين الولد.. ولأن للخوف عدوى؛ طالني منها ما طال الجالسون، وضرب قلبي الرعب من نظراته.. راح يقترب مني فظننتُ أنه سيسألني عن تذكرتي ولمَّا هممتُ بالبحث عن كومة التذاكر في جيبي توقف أمام مقعد يجلس على طرفه شاب ومال ناحيته هامساً له في أذنه بشيء، ومطبطباً على كتفه،

فنهض الشاب في جلبابه الأبيض الملطخ من عند اللياقة والصدر ببقع حمراء على الصدر، لا أعرف لماذا بدر إلى ذهني أنها بقع دم، وراح ناحية المرأة، ولما اقترب منها طأطأ رأسه وألقى في الأرض عينيه وقال لها:

- جنيدي مات يا خالة

توقفت المرأة عن دورانها وسكتت فجأة كمن أصابها الخرس، وعادت لتجلس مكانها كما كانت كأنها مدفوعة لذلك، وعاد صوت المفتش يعلو من جديد قائلاً:

- عد كما كنت يا رضا يا سلباوي

ذاكرتي التي كانت بيضاء قبل قراءة الأوراق نشطت

تنامت فيها الأفكار

تعاظمت

قفزت إلى مخيلتي كل الأحداث التي قرأتها في الأوراق وتوقفت قليلاً عند أول حدث

أليس هذا رضا السلباوي قاتل جنيدي؟

بلى، وتلك المرأة هى أم جنيدي

هؤلاء مَن قرأت عنهم.. إذن فهم أشخاص من لحم ودم لهم وجود مادي محسوس على أرض الواقع.. عليَّ أن أستطلع أمرهم بنفسي

لأقف على حقيقة ما يجري.. تلعثمتُ قليلاً لكني استطعت أن أتخطى تلعثمي وقلتُ لرضا السلباوي قبل أن يجلس

- لماذا قتلت جنيدي؟

ظننتُ أن سؤالي هذا سيكون مفاجأة له لكن ظنِّي خاب، فقد بدا السؤال متوقعاً لديه لأن إجابته جاءتني سريعة ومرتبة ومنمقة

- أنا لم أقتل أحد، ولا تصدق ما قرأته، ليس كل ما يكتب يصدق
- أنت قاتل يا رضا.. ولا تحاول أن تقنعني بغير ذلك.. أنت طعنت جنيدي بمطواة وألقيت به من فوق التلة وألقيت بخالد ممتاز أيضاً بعدما أوسعته ضرباً أنت ومَن كانوا معك.. انظر إلى جلبابك، إنه ملطخ بدمه.. دمه جاثم كالجبل على صدرك
- قلتُ لك لا تصدق كل ما هو مكتوب، فالذين أجادوا في كتابة تلك الأوراق أجادوا أيضاً في محو الكثير من الحقائق عنها

أدهشني رده، لكن سرعان ما تلاشت الدهشة لما وقف واحد من الجالسين ونعته بالكاذب وصرخ فيه قائلاً:

- ليس غريباً على بلطجي قاتل مثلك أن ينكر جريمته ويحاول التشكيك في أوراق خطَّها كتبة من الثقات بأيديهم بعدما تحروا الدقة.. أنت قاتل، وأنا قاتل.. يا هذا إنه قاتل، وأنا أيضاً.. أنا قتلت (أبو السيد)

فطنتُ إلى أن هذا الشاب هو صاحب المصنع الذي انتحر من على سطحه (أبو السيد).. بدا أن به بعض الخلل النفسي كما بدا لي أنه في ريعان الشباب.. استشاط رضا غضباً ولما لم يجد ما يقوله التفت إلى المفتش قائلاً:

- يا سيادة المفتش، قل لهذا المختل أن يتركني وشأني ولا يتدخل فيما لا يعنيه.. ماله ومالي.. أنا لست بقاتل.. وإن كان هو قاتلاً فليس بالضرورة أني قاتل مثله
- اسكتا واجلسا.. لا تتكلما دون إذن مني، أنا هنا محل الضبط والربط.. اجلسا يا قتلة يا أولاد القتلة

نظر المفتش ناحية الرجل صاحب السوط يحثه على أداء دوره في ضبط النظام.. ففطن الأخير من نظرة عينه لمراده، وهوى بالسوط على وجه الهواء فأحدث طرقعة جلس على أثرها صاحب المصنع مرغماً وتبعه رضا السلباوي بينما التفتُ إلى الولد أستفسر منه عما يحدث، لكنه كالعادة لم يسعفني بجواب شافٍ.

حينما يصبح كل مَن حولك يعرفون كل شيء وأنت لا تعرف أيّ شيء تضيق نفسك بالحدث، وتتسع رقعة الفضول بداخلك، وتتحرك مداركك لإدراك ما لا تدركه.

تلك مرحلة تلت مرحلة القراءة لا تقل غموضاً عنها، وبدر إلى ذهني ذات السؤال؛ فذهني لا يكف عن تلقي الكثير من البوادر وكأنه مهيأ لذلك..

مَن هؤلاء الخلق؟ وإن كانوا هم الأشخاص الحقيقين الذين قرأت عنهم، أين أنا منهم..؟ من أنا؟ وهل قُدِّر لي أن ألاقيهم كي أعرف من أنا

- يا سيادة المفتش إن تذاكر العربة كلها معي
- أعلم ذلك.. اعطني إياها

اقترب المفتش مني ومدَّ لي يده ليأخذ التذاكر، والتقت عينه بعينى فإذا بنظراته تكبُّ في نفسي حنوّاً وهدوءاً أماطا عنها الرهبة منه، وحثّاني على أن أبادله الحديث:

- سيدي المفتش، استيقظتُ صباحاً في إحدى كبائن القطار ولا أدري من أنا، يبدو أني فاقد للذاكرة.. هل تعلم يا سيدي من أكون؟

- نعم، أعلم.. أعلم من تكون.. أنت صديقي.. صديقي الذي سأجلس معه فوق سطح القطار أقص علي مسامعه حكايتي بعد ساعات من الآن .. وسيرافقنا هذا الولد
- يا سيادة المفتش بغض النظر عمَّا قلته الآن.. هل تعرف لي اسماً، أو وظيفة، أو أهلاً؟

تمعَّن في وجهي طويلاً كمن يستدل عليَّ، ثم ألقى لي بابتسامة شفقة.. واستدار معطياً لي ظهره، وللجالسين وجهه، وقال:

- أرجو الالتزام بالهدوء وحسن التعاون مع هذا السيد، لعله يجد ما يصبو إليه بينكم، فلولاه لكانت رؤوسكم طارت بالسوط

ثم استدار ثانية ناحيتي ووضع يده على كتفي وأكمل حديثه بود، قائلاً:

- ابحث عن نفسك وسط هؤلاء.. في وجوههم.. في حكاياتهم.. في حقائبهم التي تكدست بها أرفف العربة، ابحث عن نفسك، وإذا وجدتها سنجد جميعاً أنفسنا وستنتهى الرحلة، واعلم أنَّ ما قرأته في الأوراق شيء وما ستسمعه وتشاهده هنا شيء آخر.. لكن دعنا لا

نتأخر كثيراً؛ فأنا أتوق للجلوس معك فوق سطح القطار فلي حكاية أود أن أسرَّ بها إليك لتكون الخاتمة

****

كان الطريق إلى المعدية التي ستقلهما للجانب الآخر من ترعة الإسماعيلية ترابياً، ترتع الشمس الحارقة في طوله وعرضه..

خطوات البنت ذات التسعة أعوام ضيقة ضيق فستانها الوحيد أمها أمامها تمدُّ الخطى لا تأبه لانكفاءاتها، كل همها أن تلحق بالمعدية حتى لا تتأخر على زوجها المنتظِر لهما على الجانب الآخر

حينما وصلتا كانت المعدية قد ابتعدت عن الرصيف بمقدار فتحة رجل الأم والتي استطاعت أن تقفز وحدها وتستقرُّ على متنها، ولمَّا التفتَت أخيراً لابنتها

لم تجدها.

فى السماء كان طير يعبر الترعة من جهة الأب إلى الجهة التي أتت منها البنت مع أمها.. رأته البنت من تحت الماء، وكعادتها حينما ترى الطير في السماء مدَّت يديها إليه كمن تستجديه أن يحملها على جناحيه؛ فمدَّ شخص ممَّن كانوا على سطح المعدية

يديه وانتشلها من الغرق لمَّا لم تسعفها خطواتها الضيقة وسقطت ما بين البرِّ والمعدية.

على البرِّ الآخر لطمها أبوها على خدها لأنها كبرت وكان من الواجب أن تنتبه لنفسها بدلاً من السقوط في الترعة، وساقها كما يسوق غنمه ناحية السيارة الفارهة التي ينتظر مَن فيها قدومها للعمل كخادمة لديهم

أسعد لحظاتها تلك اللحظات القليلة التي أشرفت فيها على الغرق والتي رأت فيها السماء من تحت الماء، كانت تردد أن الطير انشقت عنه السماء وأنها رأت الله نوراً على نور..

ولم تره بعد ذلك أبداً، كما لم ترَ أبويها

الخادمة.. لقب اكتسبته في المدينة

وفي المدينة اعتصرتها جدارات البيوت والفيلل والقصور

اعتصرت طفولتها ونضجها وسنون عمرها الثماني عشرة

نهداها لمَّا برزا اعتصرهما الأسياد

وما عاداهما لم يعتصره إلا سيد واحد لم تشأ أن تبوح باسمه كبطلات الأفلام الأبيض والأسود

كانت باقي قصتها تقليدية

تسردها الأقدار في كل وقت وزمان

الخادمة الحبلى سفاحاً من سيدها الشاب

الطريدة التي لا تدرى لها مأوى

وضعت أنثى

وتجرَّدت من حبها لها

لم تحب الإناث قط

فالإناث هنَّ الهم المحمول للممات

هن اللقمة السائغة في فم أوغاد كل الأزمنة

الحاملات لخطاياهن وحدهن

كانت تخشى من خلفتهن حتى لا يطولهن دنس هذا العالم

ورداً على سؤال لي قالت بثبات عاطفي:

- كنتُ قاسية على لي لي؛ فأنا أكرهها
- تكرهين ابنتك؟
- نعم أكرهها.. أكرهها لأني كنتُ على ثقة أنها ستعيش أسوأ حياة.. ستكرر مأساتي.. كل البنات يكررن مآسي أمهاتهن بشكل أو بآخر.. أرى فيها نفسي، وأنا أكره نفسي
- لماذا لم تدافعي عنها وتجنبيها الشارع الذي ألقيتي بها فيه مبكراً؟

- الشارع كان الأمان الوحيد لها.. لم يجرؤ شخص واحد على لمس شعرة من لي لي، علمتها ذلك.. الحب هو من أطاح بـ "لي لي" كما أطاح بي سابقاً.
- وهل أحبت لي لي المحامي فسلمته نفسها؟
- وهل تسلم المرأة نفسها لرجل دون حب..؟! الحب هو السلم الذي تصعده المرأة حينما تريد أن يفض بكارتها رجل
- أنت فظة وغليظة القول.. ليست كل امرأة تحب تصعد سلمك هذا المزعوم، أنت تحاولين أن تكوني قاسية في حديثك عن لي لي تحاولين تصدير صورة مشينة لذهني عنها.
- يا سيادة المحامي.. أنا امرأة، وليس هناك أدرى بمشاعر المرأة من امرأة مثلها
- سيادة المحامي؟ هل أنا محامٍ.. هل تعرفينني.. انطقي يا أم "لي لي"
- منذ أن رأيتك أول مرة في عشتنا عرفتُ أن لي لي ستمنحك حق فض بكارة حياتها وجسدها.. هل تعرف أنك تشبه والدها كثيراً، كان مثلك ذو علم ووسامة وشباب

وكأن الزمن يعيد نفسه ثانية.. كان يدافع عن الخادمات ويعتبرهن مثل كل النساء من حقهن أن يتزوجن بالأسياد.. كان يدافع كثيراً ويخوض المعارك الشرسة مع أمه الرافضة لذلك، ومع أعمامه، وأخواله، وحينما نالني في ليلة مثل تلك الليلة التي نلتَ فيها لي لي تلاشت من ذاكرته كل مبادئه التي كان ينادي بها.. أعطاني بضع جنيهات وأوصلني لمحطة القطار وأنا أحمل لي لي نطفة في أحشائي.. وتركني ومشى بالضبط كما فعلتَ أنت، ظللتَ تجاهد من أجل أن توفق أوضاع أولاد العزبة وتجعل منهم أولاداً لهم صفة وهوية وأوراق ثبوت حتى يصير لهم كينونة في المجتمع، كنت ترفض قانون العزبة وتقاتل من أجل القضاء عليه، وحينما نلت لي لي تهاوت كل مبادئك وصرت واحدا ممن رفع لواء قانون العزبة عالياً.. كيف ترى ابنتك على يد لي لي وهي تودعك بعدما تخليت عنها ولا تتحرك مشاعرك ناحيتها؟ فمها يشبه فمك، وأنفها قطعة من أنفك، إن ابنتك قطعة سقطت منك.. لكن ماذا أقول إنها إرادة القدر.. قدر أن تلقى ابنتك نفس مصيرنا أنا و"لي لي".. لا تقلق.. العزبة تضج بالكثير من الرجال

الذين يتمنون لي لي، وأنا أثق في قدرتها على اختيار رجل مناسب منهم لابنتك كي تنسبه إليه كما فعلتُ مع الرجل الذي تركهم ونزح.. والله كان طيباً، عاملها كما عامل أبنائه الصبيان الذين أتوا من صلبه

نهضتُ من أمامها فرحاً

تلاشى من عقلي كل ما حكته لي عن حياتها

وتطاير من عقلي ما دار بيني وبينها من حوار طويل

كل ما رسخ بعقلي أني محامٍ

وأنَّ طرف الخيط أصبح بيدي وعليَّ أن أسحبه حتى أصل لحقيقة نفسي

- يا ولد، تعالَ.. أنا محامٍ.. أنا الشخص الذي تحدثَت عنه الأوراق..

قاطعني الولد الذي كان لا يزال واقفاً مكانه لم يتحرك خطوة بعدما رمقني بنظرة حادة، وقال لي:

- كيف تصدق امرأة ميتة..؟! إن أم لي لي ماتت في أوراقك.. تذكَّر ما قرأته جيداً

انتبهت لنفسي جيداً

أفقتُ من سطوة فرحتي

تذكَّرتُ أني كنتُ سأواجهها بما سردته الأوراق عن حقيقة موتها، وكيف هى بيننا الآن إلا أن عقلي قد غُيِّب عن كل شيء وصرتُ مستمعاً لها لمَّا نادتني

أول واحدة في العربة وطلبت مني أن أستمع لها، كل كلمة قالتها لي اختزنتها في عقلي حتى أني شعرتُ للحظات أني من يقص قصتها على لساني كراوٍ عليم

- يا سيادة المفتش، هل سمعت ما قالته تلك المرأة؟

قلتُ ذلك لمفتش القطار الذي كان قد أخلى لنفسه مكاناً بجانب رجل السوط وجلس متفرجاً، فردَّ عليَّ بصوته الجهوري:

- يا سيدي، قلتُ لك قبل ذلك أن ما قرأته في الأوراق شيء وما ستسمعه وتشاهده هنا شيء آخر.. ودعني أُذكِّرك، لا تجعلنا نتأخر كثيراً؛ فأنا أتوق للجلوس معك فوق سطح القطار نحتسي حكايتي

عدتُ لنقطة الصفر ثانية.. على الأخصِّ بعدما قلتُ للولد: كيف عرفت تلك المعلومة؟ هل قرأت هذا الورق من قبل؟.. وأجابني أنه ما زال صغيراً لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه لا تخفى عليه

خافية، ويعرف كل ما يدور في تلك العربة بالذات، وعدت ثانية لأم لي لي، وبهدوء قلتُ لها:

- سيدتي، هل عندك تفسير لهذا؟
- أنا صادقة في قولي.. أنا أم لي لي.. ولا يعنيك في شيء كوني حية أو ميتة.. كل ما يعنيك أنك أنت أنت.. محامٍ.. وكما قال رضا السلباوي لك..لا تصدق كل ماهو مكتوب؛ فالذين أجادوا في كتابة تلك الأوراق أجادوا أيضاً في محو الكثير من الحقائق عنها

رمقها رضا السلباوي بنظرة إعجاب وتأييد، وتبادلا الإشارات الدالة على وحدة رأيهما، ووقفتُ بينهما حائراً فاغراً فاهي، إلى أن أتى بي من عند حيرتي صوت صاحب المصنع الذي أصر من ذي قبل على تأكيد تهمة القتل على نفسه وعلى رضا السلباوي قائلاً:

- ليس غريباً على بلطجي مثلك، قاتل، وعلى أم كارهة لابنتها، وفي حكم القاتلة مثلك، قتلت عطفها وحنانها على ابنتها، ليس غريباً أن يشككا في أوراق خطها كتبة من الثقات بأيديهم بعدما تحرَّوا الدقة.. لماذا لا تعترفا بخطاياكما مثلي حتى تتطهرا من ذنبكما؟ لماذا تضللان

الرجل وهو الساعي للحقيقة؟ اصدقاه القول يا قتلة، لعل ضميريكما ينالان قسطاً من الراحة.

استشاط رضا ومعه أم لي لي غضباً، ولمَّا لم يجدا ما يقولانه لهذا الشاب الذي احترتُ فيه التفتا إلى المفتش وفي نفس واحد قالا:

- يا سيادة المفتش، قل لهذا المعتوه أن يتركنا وشأننا ولا يتدخل فيما لا يعنيه.. نحن لسنا بقتلة، وإن كان هو قاتلاً فليس بالضرورة أن نكون قتلة مثله.
- اسكتوا واجلسوا لا تتكلموا دون إذن مني، أنا هنا محل الضبط والربط.. اجلسوا يا قتلة يا أولاد القتلة

وفرقع السوط في وجه الهواء فجلس من كانوا على خلاف

السوط يصنع الأعاجيب في هذه العربة

لا أعلم هل يصنعها في الخارج أيضاً أم لا

كل ما أعلمه وجربته بنفسي وقت أن كنت خارج المحطة أنه يرمي بالرعب كالشرر في نفس من يراه

أما ما يفرضه هنا من هدوء وصمت والتزام لا أعلم إن كان يفرضه في الخارج أيضاً أم لا

****

أنا صفحة هذا العالم البيضاء

والصفحات خلقت من أجل أن يصب عليها الحبر صباً

فتورق بالمعرفة

أتوق للمعرفة، وهل من الممكن أن تكون هناك معرفة وسط كل

هذا الغموض والليل الممتد أمام ناظري الآن

أبواب العربة مفتوحة على ليل بهيم لا نقطة نور في سمائه

صوت القطار على القضبان يفتك بالهدوء يثير أعصابي

لا نسمة هواء.. أشعر بالاختناق

أحد ما يتحرك خلفي

كلما التفتُ إليه لا أجده

الكل قعود لا أحد فيهم متغيب عن مكانه، الكل غارق في شروده

تهتز أجسادهم مع حركة القطار

يد ربتت على كتفي فجأة

فنظرتُ أمامي فإذا بخيالات لرجل تهدَّلت في عيني ملامحه

وبصوت كالهمس دعاني أن أنظر على الباب الذي بمؤخرة العربة

انتبهتُ ونظرتُ لا شيء

دققتُ النظر أكثر.. لا شيء خلفه غير الظلام

لكن مهلاً.. الظلام تتهدل ملامحه.. تتلاشى تدريجياً

وكل مَن في العربة ينتبهون

ينهضون واقفين

يقتربون مني كالمأمورين بذلك

يصطفُّون خلفي.. إلا الولد يجاورني

المفتش يدعوهم بالالتزام وبالهدوء لمشاهدة العرض

أيُّ عرض هذا؟

انقشع الظلام خلف باب العربة تماماً

وبان لعيني خشبة مسرح كبير

وصرتُ أنا ومن في العربة جمهور المتفرجين

ستار المسرح أبيض شفيف لم يرفع بعد

خلفه يتخفى رجال ثلاثة لا معالم لهم وكأنهم أشباح.. وفي حركات تعبيرية يعبثون بالستار؛ فيتماوج أمام الأعين.. ثم يكفون فجأة عن ذلك ويضعون وجوههم في الستار فيلتصق بها ويقولون جميعاً في نفس واحد:

الرجال الثلاثة:

- تلك المرة الأولى والأخيرة التي سنظهر فيها لكم.. نحن الوحيدون الذين سعوا لركوب القطار، لذا انتشلتنا أقدارنا من التواجد بينكم في عربتكم الأخيرة.. يكفى أن حكايتنا سطرت على الأوراق وما خفي منها سنعرضه عليكم...

الآن سنقطع شرايين أيدينا بسكين واحد منحه لنا القائم على شئون العرض كي نلطخ الستار بدمائنا.. فبدونها لن يُرفع الستار ولن يكون هناك عرض

من خلف الستار سَرَت توجُّعات الرجال؛ فالسكين بينهم يمرُّ لشق شرايينهم.. تلطَّخَ الستار

تشرَّبَ الدماء حتى تشبَّع وسالت من حوافه.. فارتفع رويداً رويداً

تساقط الرجال الثلاثة وتمدَّدوا جثثاً أمام أعيننا

صفَّقتُ مع من صفَّقَ

دار المسرح بطيئاً ثم ازدادت حركة دورانه، وما أن لُفظ الرجال الثلاثة خارج خشبته حتى توقف فجأة وازدان بالأضواء الباهرة التي تطمس معالمه

فى أقصى اليمين بضع درجات سلم ارتقتهم بسرعة فتاة في عباءة سوداء فخفتت الأضواء ولما صارت على المسرح اقتربت من حافته في تؤدة وبطئ مصطنع، ثم وقفَت قليلاً تتلفتُ يميناً ويساراً، ثم قالت:

الفتاة:

- أنا لي لي.. لا أعرف لماذا اختارت أمي لي هذا الاسم؟

انتفضت أم لي لي من مكانها، وتخطَّت الواقفين، وراحت عند حافة باب العربة التي نُصب خلفها المسرح، ونظرت لـ "لي لي" على خشبته، وقالت لها:

- أبوك يا لي لي.. رجل سيد من علية القوم.. مثقف ومتعلم، كان يقرأ ذات ليلة قصة بطلتها اسمها لي لي فـ.....

طرقع السوط في الهواء؛ فانتفض الجميع وصرخ المفتش في أم لي لي وتوعَّدها إن لم تجلس مكانها ستنال عقاباً قاسياً..

شذراً نظرت له أم لي لي ولمعت عيناها فأخافتنا جميعاً، وفردت يديها في الهواء كمن نبت لها جناحان وتستعد للتحليق في الهواء.. ارتفع جسدها عن الأرض كريشةٍ.. وحلَّقت.. فخرجت من باب العربة لنجدها على خشبة المسرح خلف لي لي.. حامت حولها كروح تشيِّع جثمانها لمثواه الأخير، وقالت:

أم لي لي:

- أبوك يا لي لي.. رجل سيد من علية القوم.. مثقف ومتعلم، كان يقرأ ذات ليلة قصة بطلتها اسمها لي لي فأبدى إعجابه باسمها أمامي كثيراً.. لذلك سمَّيتك على اسمها، يا بنت إنه من اختيار أبيكِ الذي لم تره عيناكِ.. هل تسمعينني يا بنتُ

لم تلتفت إليها لي لي وكأنها عدم.. ونظرتُ للولد مؤكداً له صحة كلامه أن أم لي لي ميتة، وقلت له هامساً:

- لم تكن تلك سوى روحها جاءت لتقص على مسامعى ما أغفله الورق.. جاءت لتسدَّ مواضع النقص

ثم انتبهتُ لما يجرى على خشبة المسرح، فإذا بالروح وقد حطت قدميها على خشبة المسرح وراحت تتابع لي لي بقلق وتدور حولها.. كانت لي لي قد أنهت حوارها ووقفت تستمع للرجل الذي دخل إلى المسرح من أقصى اليسار مرتقياً بسرعة درجات سلم ومبدياً بصوت عالٍ إعجابه بها وبقوامها وأنوثتها، وما أن صار قبالتها حتى انحنى لها، وتناول يديها يقبلهما في شبق ملحوظ، ثم التفت ناحية الجمهور، وقال:

- لن أشتتَ أذهانكم وأذكر لكم اسمي الحقيقي وأشغل بالكم في معرفة مَن أكون.. أنا العجوز المتصابي مدير مستشفى الأمراض العصبية والنفسية وقد ورد ذكري في مواضع عدة من بضع أوراق لم تكن بالقدر الكافى لذكر دوري الحقيقي في تلك الحياة؛ فأنا...

- أنا بهاء الله، نبى الله ورسوله إليكم، عطية السماء لكم وهاديكم إلى الدين الجديد الجامع والكافي، دين الإنسانية،

وفي موضع آخر أنا ربكم.. وليس عندي مانع من تزويجكما الآن بشرط أن تحصلا على موافقة كتابية مِن أبويكما.

دخل بهاء الله من وسط المسرح مقاطعاً إياه وملتقطاً طرف الحديث منه، كان طويلاً، ومعمَّماً، استطالت ذقنه البيضاء حتى صدره، وأخذ مكانه وسطهما، ولما انتبها لقول تزويجهما؛ أشاحا بيديهما له، وأعرضا عنه، وقالت له لي لي:

- ومن مات أبواه ماذا يفعل..؟ لا يا شيخنا، إن أردت الزواج؛ سأتزوج وفق قانون عزبتنا، حيث لا ورق ولا موافقة ولا قسائم زواج ولا.. ولا.. ما أدراني بك..؟ وما أعرفه خير لي مما أجهله

فرح العجوز المتصابي بقولها، وأزاح بهاء الله بيده قليلاً، وقطع المسافة الفاصلة بينهما بسرعة، ووقف أمامها قائلاً في صبيانية لا تليق به:

- وأنا قبلتُ الزواج بك وفق قانون عزبتك وقلتُ لك ذلك مراراً منذ أن التقيتكُ أول مرة بالفندق الذي كنتِ تعملين به.. هيا بنا

دارت روح أم لي لي حولهما في قلق منزعجة مما يحدث دون أن تتكلم

وقالت لي لي:

- إلى أين؟

العجوز المتصابي:

- إلى العزبة؛ فأنا لا أطيق صبراً أمام عباءتك تلك يا لي لي

أطلقت لي لي ضحكة مائعة، وابتعدت روح أمها بظهرها حتى آخر المسرح في يأس، واقترب بهاء الله منهما وفصل بينهما قائلاً:

- لا تنسوا نحن هنا من أجل مهمة محددة علينا إنجازها.. لا تنسوا أن هناك دماً مسفوكاً ونريد معرفة من سفكه بدون وجه حق

انتبهت لي لي، وتصنَّعت الجدية، وقلدها العجوز المتصابي أيضاً، وقالا في نفس وحد:

- إذن فليبدأ العرض

تبعهما بهاء الله قائلاً:

- ببركتي أنا بهاء الله فليبدأ العرض

خرج بهاء الله من وسط المسرح بينما تأبطت لي لي ذراع العجوز المتصابي وخرجا من جهة اليسار بعدما احتارا قليلاً من أيِّ جهة سيخرجان

قالت لي لي بعدما أظلم المسرح:

- يقول لنا ببركتي.. أيُّ بركة تلك؟ إن رائحته مقززة.. هل شممتها..؟ كان عليه أن يغتسل هذا العفِن

تنزوي ضحكاتهما المائعة حينما تبدأ جنبات المسرح تضج بأصوات متداخلة لرجال كثيرين لا تميز لهم قولاً واحداً

يملأ المسرح ضوء نهاري ليكشف عن ديكور قاعة بدوار العمدة.. على أحد المقاعد يجلس العمدة حسيب وبجواره يقف ابنه هلال.. اللغط يزداد في الخارج

العمدة حسيب: أليس هذا صوت الجرذان؟

هلال: وهل في الكَفر صنف آخر غير الجرذان يا عمدة؟

العمدة حسيب: إنه يقلقني يا هلال

هلال: انتظر حتى أرى ما الأمر

يهمُّ هلال بالتحرك نحو باب القاعة الحديدي، لكن خفيراً نظامياً يحمل بندقيته ويلتقط بالكاد أنفاسه يدخل عليهما ويقول:

الخفير: يا جناب العمدة.. يا جناب العمدة

هلال: انطق يا كلب بسرعة

الغفير: الصبر يا جناب ابن العمدة يا هلال البلد وهلالنا.. أم كريمة وأهل الكَفر تجمهروا عند باب الدوار ويريدون مقابلة جناب العمدة

هلال: اختفِ يا كلب.. واجمع الخفر ولا تجعل أحداً يخطو خطوة ناحية باب الدوار، ومن يخطو اضربه بالنار

الخفير: أمرك يا جناب ابن العمدة يا هلال البلد وهلالنا

هلال: اسمع يا كلب.. اقترب مني

يقترب الخفير في توجس وخيفة قائلاً:

الخفير: أمرك يا جناب ابن العمدة

هلال: هل لمحت خالد ابن ممتاز وظله جنيدي وسط الناس

الغفير: يا جناب ابن العمدة وهل يخلو تجمهر في الكَفر منهما؟ إنهما رأس الشر في الكَفر

هلال: اختفِ يا كلب ونفذ الأوامر

الخفير: أمر جنابك.. حاضر

يخرج الغفير بينما ينهض العمدة حسيب غاضباً صارخاً في هلال قائلاً:

العمدة حسيب: ما زلت يا هلال تتاجر في الأعضاء البشرية.. قلت لك مراراً لا شأن لك بتلك التجارة حتى لا ينكشف أمرنا.. خطأي حينما عرَّفتك على العجوز المتصابي، هو سبب كل بلوى في الكَفر وهو من جرَّ قدمك لذلك المستنقع

هلال: يا أبي، إن الشيخ محمد عرفان في آخر زيارة لنا كان متعباً وفي أمسِّ الحاجة لكلية، فلم أجد سوى (أبو كريمة) كي يتبرع بها له، والرجل وافق ورتبنا مع العجوز المتصابي كل شيء، لكن عملية النقل والزرع لم تسِر كما رُتِّب لها، ثم ما شأننا نحن.. نحن بعيدون كل البعد عن تلك الأمور ولا يستطيع أحد توجيه اتهام واحد لنا، إن (أبو كريمة) مات ودُفنَت جثته في مقابر الصدقات بالقاهرة دون أن يعلم أحد أنه مات من الأصل

العمدة حسيب: وها قد انكشف الأمر ومن المؤكد أن أم كريمة لم تبخل على مسامع أهل الكَفر بنقل الأخبار لهم.. كان من المفروض أن تقول لي قبل أن تقدم على فعل شيء ولا تتركني أعرف بعد وقوع المصيبة.. ماذا سنفعل الآن بعد أن تجرأت جرذان الكَفر بالزحف نحو الدوار والتجمهر على عتبته؟

هلال: سأفرقهم وإن كلفني هذا حياتهم كلهم، إن الخفر خلفي وبنادقهم عامرة بالذخيرة الحية وفي انتظار إشارة مني لحصد أرواحهم

يدخل القاعة فجأة شيخ الخفر طلبة يسوق أمامه الخفير الذي كان موجوداً من قبل ويصرخ في العمدة وولده قائلاً:

شيخ الخفر: أيُّ رصاصة ستوجه لأهل الكَفر سيكلفكما هذا كثيراً

هلال: كيف تتحدث بتلك اللهجة مع جناب العمدة يا شيخ الخفر؟

شيخ الخفر: اسكت يا ولد، حينما يتكلم الكبار على الصغار أن ينصتوا فقط.. واعلم يا هلال أن أيَّ رصاصة ستطلق على أهل الكَفر سيكون مقابلها رصاصة مجهولة من خفير غشيم من خفري، لا أعلم ستخترق قلب مَن.. وستحرق قلب مَن على مَن

هلال: هل أعتبر ذلك تهديداً يا شيخ الخفر إذن؟

العمدة حسيب: اسكت يا هلال.. اخرج.. واتركني منفردا مع شيخ الخفر.. خذ هذا الكلب في يدك واغلق خلفك باب القاعة

هلال: لكن يا أبي

العمدة حسيب: اسمع الكلام يا بني

يخرج هلال جاراً خلفه الخفير بعدما تبادل مع شيخ الخفر نظرات الوعيد.. ويغلق خلفه الباب بقوة

العمدة حسيب: لم يعد بيننا لغة حوار مشتركة يا شيخ الخفر وصرت تهاجمني كثيراً على الأخصِّ أمام ولدي هلال.. أين لغة التفاهم التي كانت بينا يا طلبة طيلة عمرنا؟ أين لغة الاحترام التي كانت بيننا منذ أن تسلمنا مقاليد الحكم في الكَفر؟

شيخ الخفر: أنت تعلم يا عمدة تمام العلم أنه منذ أن أوليت ابنك مهامك والفجوة بيننا اتسعت.. هل تعلم يا عمدة أن ابنك ينتوى الإطاحة بي وتعيين رضا السلباوي خلفاً لي.. رضا السلباوي البلطجي الذي صنعته بيدك يا عمدة كي ترهب به أكابر الكَفر ومعارضينك.. رضا السلباوي الذي كنت ترسلنى لأخرجه من السجن كلما ارتكب جرماً من تدبيرك أنت وولدك

العمدة حسيب: كذب يا شيخ الخفر أنت أصبحت تهذي من يوم أن التفتَّ لأقوال الأولاد المتعلمين في الكَفر وبدأت تدعمهم وتقف خلفهم وتقيم لهم السامر على مقهى الكَفر، وبتَّ تسمح لهم بالكلام عن أشياء أنت نفسك لا تفقه معناها.. عد إلى صوابك يا شيخ الخفر، وعد إلى صفي وكفانا انقسام.. الأولى بك يا شيخ الخفر أن تكف عن تسليط هؤلاء الجرذان على الهتاف ضدي في جرن الكَفر والمطالبة بتنحيتي عن منصب العمدة الذي قضيت فيه عمري وتقديم الشكاوى فيَّ إلى مأمور المركز.. الأولى بك أن تخمد

أصواتهم حتى لا يطولك ما سيطولني لو نجح هؤلاء الجرذان في إقصائي عن مقعد العمدة.. اسمع يا شيخ الخفر وأسمعهم معك.. أنا أو الفوضى في الكَفر يا شيخ الخفر.. إن أصابني مكروه سأحرق الكَفر بمن فيه.

يقف عن الكلام كلٌّ من العمدة حسيب وطلبة شيخ الخفر، ويتسمَّران مكانهما، وتنحسر الإضاءة عنهما قليلاً لتبزغ بقوة فوق رؤوس لي لي والعجوز المتصابي وبهاء الله والذين يدخلون مجتمعين من جانب واحد من المسرح

لي لي: ليست العزبة وحدها التي لها قانونها الخاص، من الواضح أن كل شبر بالبلد له قانونه الذي يطبق فيه

العجوز المتصابي: هل تعرفين هذا العمدة وولده ذراعي الأيمن في الكفور والنجوع والقرى.. يوردان لي البائسين والفقراء والمحتاجين كي يتبرعوا بأعضائهم مقابل القليل من المال وهم يتقاضون النصيب الأكبر على كل رأس يرسلونها.. يا حراااام.. أرسلوا لي (أبو كريمة) هذا ليتبرع بكليته لثري عربي تربطه بهما مصالح.. لكن الرجل لم يحتمل أن يظل جرحة مفتوحاً لمدة طويلة لحين إنقاذ الثري العربي؛ فمات.. فما كان مني إلا أن حصلت على

كليته الأخرى وأكرمتُ مثواه ودفنته بمقابر الصدقة.. لا تشغلي بالك يا لي لي بكل هذا وقولي لي، هل أعجبتك حقاً؟

تضحك لي لي بميوعة، وتلتفت عنه قائلة للشيخ:

لي لي: هل اغتسلت يا شيخنا اليوم.. اذهب واغتسل

وتتكرر ضحكتها المائعة

بهاء الله: إليكِ عني يا فتاة.. وأنا لست شيخاً، أنا الله.. ولا ينبغي أن تقولي لربكِ اذهب واغتسل

تضحك لي لي بميوعة أكثر من ذي قبل وتقول:

لي لي: ربي؟ يا نهار أسود.. هل أنت من الناس المجنونة التي يسمونها.. يسمونها....

تتجه لي لي ناحية العجوز المتصابي محاولة الاستعانة به بعدما تصنَّعت نسيان ما ستقوله، فردَّ عليها قائلاً:

العجوز المتصابي: مُدَّعو الربوبية يا حبيبتي

لي لي: نعم ما قاله حبيبي هذا.. رُح واغتسل يا عم الشيخ، إن رائحتك تخنقني

العجوز المتصابي: اتركيه وشأنه يا حبيبتي وتعالِ نحن نخرج من هنا وندعه يكمل دوره، فما زال له دور مع العمدة وشيخ الخفر؛ فهناك ثمة علاقة تربطهما به

يخرجان بعدما يتأبطان ذراعيّ بعضهما البعض من الناحية اليسرى من المسرح بعدما يحتارا من أيِّ مكان سيخرجان

تعود الأضواء ثانية ناحية العمدة وشيخ الخفر، ويعاودان الحديث كأنهما لم يكفَّا عنه

شيخ الخفر: هذا آخر كلامي لك يا عمدة.. إذا أردت أن نستعيد أمجادنا وتعود المياه لمجاريها، ابعد هلال ابنك عن مقاليد الحكم ليعود بيننا كما كان.. وزوِّج ابنك لابنتي

العمدة حسيب: هلال لم يعد صغيراً يا شيخ طلبة ولا أستطيع فرض رأيي عليه

شيخ الخفر: ومن إذن يستطيع يا جناب العمدة.. زوجتك.. زوجتك التي باتت لها أيضاً اليد الطولى في حكم الكَفر

العمدة حسيب: ما لك وما لزوجتي يا شيخ الخفر، منذ متى ونحن نقحم زوجاتنا في أحاديثنا..؟! من الظاهر أن جلوسك مع خالد ابن ممتاز وجنيدي جعلك تنسى الأصول وتهذي بأفكار العلمانية التي يروجون لها.. والظاهر أن صلتك بالبهائى بدأت تثنيك عن دينك وتعاليمه

شيخ الخفر: اسمع يا عمدة، رقبتك صارت بيدى وأنا صرتُ أملك زمام هؤلاء الثائرين بالخارج، صرتُ أحركهم كيفما يحلو لى.. فكر فيما قلته لك وأجبني بسرعة؛ فالوقت ما عاد لصالحك.

يتسمَّر العمدة مكانه وتنحسر عنه الأضواء بينما يتجه شيخ الخفر إلى صدر المسرح ناحية بهاء الله ويقبِّل يده قائلاً:

شيخ الخفر: بات الطريق خالياً لكم ولدعوتكم، فقط امنحنى دعم مريديك وسأبوأكم في الأيام المقبلة مقاعدكم الحقيقية

بهاء الله: بركتي ومريديني وأتباعي وكل رجال المحفل في ظهرك يا شيخ طلبة.

يُظلم المسرح تدريجياً ليحل الليل ويرحل عنه النهار ويضج بنقيق الضفادع، يظهر في القاعة العمدة جالساً على مقعده، واضعاً رأسه بين راحتيه، فلا وجه له ظاهر.

يدخل عليه هلال فرحاً قائلاً:

هلال: انتهى كل شيء يا عمدة.. راضيتُ أم كريمة وأرسلتها تعتمر.. وقمتُ بتحريض رضا السلباوي على قتل جنيدي بعد افتعال مشكلة معه.. وأفهمتُ ممتاز إن لم يرحل ابنه خالد من الكَفر سينالـه ما نال جنيدي.. جنيدي لا عائلة لديه إلا أمه فكان يجب التضحية به حتى نسكت كل الألسنة التي بدأت تتطاول علينا

وتنادي بتركنا للكَفر.. ورضا السلباوي ولدنا كما تعرف، فأنت من ربيته وجعلتَ منه ولدنا.. ما رأيك بعد أن يمرَّ موت جنيدي بسلام نعينه شيخاً للخفر بدلاً من الشيخ طلبة؟

يسمع من خارج القاعة هتافاً بسقوط العمدة وولده هلال والمطالبة بالقصاص منهما لمقتل جنيدي ويقتحم القاعة عليهما شيخ الخفر وبهاء الله ومجموعة من الخفر ويرفع العمدة رأسه ناحية الجميع ويقول لشيخ الخفر:

العمدة حسيب: لقد عجَّلتَ بالنهاية يا شيخ الخفر.. كان من الممكن أن تسير الأمور في اتجاه أفضل مما خططت له.. يا شيخ الخفر أنت أدرى الناس بأن كَفرنا لا يمكن أن يحكمه غيري

تنطفيء الأضواء بالمسرح ويبقى هناك ضوء مسلط على رأس العمدة حسيب وآخر مسلط على رأس شيخ الخفر ويختفي الواقفون عن الأنظار ويتنحنح شيخ الخفر ويتلفت في كل الاتجاهات، ولمَّا يطمئن أن لا أحداً يسمعه أو يراه يميل ناحية العمدة هامساً له:

شيخ الخفر: طلبة ليس ناكراً للجميل يا عمدة، طلبة لا ينسى أنك من أتيت به من مجاهل الكَفر وعينته شيخاً للخفر ورفعت قدره بين جرذان الكَفر.. إنها مسرحية يا حسيب.. أقصد يا عمدة..

اضطررنا إلى تمثيلها ولا تنسَ أنكَ أنتَ وولدك من فرضتما علينا تلك الأدوار واخترت دورك، فعليك أن تكمله للنهاية.. ولا تخشَ شيئاً.. لن ينالك أذى، وصدقني سأصنع منك يوماً ما بطلاً تشتاق الجرذان لطلَّته.. فقط طاوعني ولو مرة واحدة واترك لي الزمام قليلاً فأنا مهدتُ لكل شيء، ثم إن الأوان قد آن كي ترتاح يا عمدة وتنعم بثروتك.. انهض يا عمدة واخرج على الجرذان شامخاً وأعلن أمامهم أنك سلَّمت مقعد العمدة لمن هو أحق.. أسرع يا عمدة، أريد أن تدخل الجرذان جحورها؛ فأصواتهم تقلقني كما تقلقك.

ينهض العمدة متكئاً على عصاه مرة، وعلى كتف شيخ الخفر مرة، وتعود الأضواء للمسرح ثانية، ويظهر الواقفون يتبادلون الحديث وكأنَّ كل ما دار من وراء ظهورهم لم يكن، يتجه هلال ناحية العمدة ليأخذ بيده حينما يراه ينهض ويقول له:

هلال: أعطِ الخفر أمراً بضرب النار يا أبي.. إنها انتفاضة مصطنعة.. سيلهون أهل الكَفر بها قليلاً وسيعودون لدورهم إن وجدوا قتيلاً واحداً سقط بينهم.

العمدة حسيب: اتبعني يا ولدي وأطع أمري.. إن عمك طلبة قد أعد العدة لكل شيء.. إنها زوبعة بفنجان وستمرُّ بأمان.

يتململ شيخ الخفر في وقفته ويغمز بعينه للعمدة في غيبة من نظر الواقفين ويعلو صوته قائلاً في خبث:

شيخ الخفر: إنها ثورة يا عمدة.. إنها إرادة أهل الكَفر وعلينا احترامها

يقول بهاء الله مردداً دون تفكير ومقاطعاً شيخ الخفر

بهاء الله: إنها ثورة.. ثورتي المباركة يا عمدة

يردد الخفر خلفهم في غيبة من عقولهم

- ثورة ثورة

يقتاد الخفرُ العمدةَ حسيب وولده إلى خارج المسرح وعند باب القاعة يتوقفون قليلاً حينما يقول لهم شيخ الخفر.

شيخ الخفر: رافقوا العمدة إلى شرفة الدوار كي يلقي كلمته على مسامع أهل الكَفر، ثم اقتادوه وولده وألقوهما في السلاحليك لحين صدور أوامر جديدة.. يقترب شيخ الخفر من العمدة هامساً له ثانية وبوضوح بعد أن يشير للواقفين بغض الطرف وعدم الإنصات إلى ما سيقوله، فيمتثلون للأمر:

شيخ الخفر: لا تخشَ شيئاً يا عمدة، اقضِ في السلاحليك بعض الوقت حتى أحميك من غضبة أهل الكَفر، وبعدها ستعود سالماً غانماً أنتَ وولدك نجلس معاً نجترُّ ذكرياتنا.

ينظر له العمدة حسيب وولده هلال بمذلة ويقول العمدة:

العمدة حسيب: لا تتأخر عني يا شيخ طلبة فأنا رجل كبير السن ولا طاقة لي بالسجن.. جهز لي نزلاً في مشفى المديرية.

يربت شيخ الخفر على ظهر العمدة وولده ويعطي الإشارة للخفر بالتحرك، ويخرجون بالعمدة وولده، ويتبقى الواقفون بالقاعة يتبادلون التهنئة، وما أن ينتهوا حتى يدعوهم شيخ الخفر إلى الخروج، ويمتثلون لأمره، وتبدو عليهم أمارات الطاعة العمياء، ويهمُّ الشيخ بهاء بالخروج إلا أن شيخ الخفر يأمره بالانتظار، وحينما تخلو لهما القاعة يتعانقان ويقترب بهاء الله من المقعد الذي كان يجلس عليه العمدة ويتحسسه طمعاً في الجلوس عليه.. يرمقه شيخ الخفر بنظرات خفية ملؤها الخبث والخديعة، ويقول له:

- **اجلس.. اجلس يا بهاء الله.. اقصد اجلس يا شيخنا الجليل.. اجلس يا عمدتنا الجديد**

يبدو الفرح على وجه بهاء الله ويجلس في خيلاء وكبر ويقول لشيخ الخفر

بهاء الله: يا شيخ الخفر، قل لمريديّ وأتباعي إن ربكم قد تقلد مقاليد الأرض "فونفسه المحبوب ما أردت أن أكون رئيساً لمن على الأرض بل ألقي عَلَيهم ما أمرت به من لدن عزيز جميل"

ينظر إليه شيخ الخفر باستهزاء قليلٍ، ثم يرفع للسماء يده ويعبث في الهواء بأصابعه كرجل يحرك عرائس الماريونيت ويرفع رأسه عالياً؛ فتنحسر الإضاءة عن المسرح لتحاوطه هو فقط وتقف فوق رأسه فيمتد ظله على خشبة المسرح مهولاً ولا تعود الإضاءة لسابق عهدها إلا حينما يقتحم المسرح رجال كثيرون كلهم يرتدون زياً أسود وينقسمون إلى فريقين، فريق يجلس متربعاً أسفل يد شيخ الخفر اليسرى وقد استطالت لُحاهم وأمسكوا بأيديهم بنادق، والفريق الآخر يقف بلا لُحى وسلاح واضعين أيديهم في جنوبهم متحفزين ومتأهبين لأيِّ رد فعل من الفريق الآخر.. وكلما قهقه شيخ الخفر؛ كلما أطلق الفريق الذي بيده الأسلحة طلقات في الهواء فيتساقط الكثيرون من الفريق الآخر قتلى، تستمر قهقهات شيخ الخفر وتتعالى أكثر وأكثر ويستمر إطلاق الرصاص ويستمر تساقط القتلى وبهاء الله يجلس في خيلائه يشاهد ما يحدث دون أن يحرك ساكناً حتى يقترب منه رجل يدخل إلى مسرح من باب القاعة دون أن يشاهده أحد ويهمس له في أذنه فينهض غاضباً

ويعقد يديه خلف ظهره ويرمق الطرفين بنظرات ملؤها الحيرة ويقف قليلاً مفكراً ثم يتحرك ناحية الفريق الملتحي ويتصدرهم معلناً أنه قد آذرهم دون غيرهم، وما أن يعلن مآذرتهم حتى يسمع هتافاً من خارج القاعة

الكورس: ثورة.. ثورة.. ثورة

يردد من بالقاعة جميعاً أيضاً

- ثورة.. ثورة

ويشتبك الفريقان في معركة ضارية ينتفض لها بهاء الله ويدور خائفاً حول نفسه، وينادي شيخ الخفر الذي يأتيه مسرعاً

بهاء الله: ألم ننتهِ من الثورات يا شيخ الخفر..؟ لم أنعم بعد بجلستي على مقعد العمدة

يقهقه شيخ الخفر بصوت عالٍ، ويقترب منه، ويمسك بذقنه ويشدها بقوة ناحية الأرض حتى يخر بهاء الله راكعاً على قدميه، ويكفُّ الجميع عن الاشتباك والحركة، ويسود المسرح صمتاً رهيباً، ويتسمَّر الفريقان مكانهما، وينحسر عنهم الضوء جميعاً ليبزغ فوق رأس لي لي التي تدخل القاعة وحدها مقطعة الثياب مهوَّشة الشعر، تدور وسطهم وتبكي، قائلة:

لي لي: ألم يرَ أحدكم ابنتي..؟ ألم يرَ أحدكم العجوز المتصابي..؟ لقد خطف ابنتي سيقطِّع أعضاءها ليبيعها.. ابنتي.. أين أنتِ يا ابنتي؟

وتصرخ لي لي بقوة، وتنهار وسطهم، ويقطع صراخها صوت الهتافات المطالبة بالثورة

- ثورة.. ثورة

إظلام تام بالمسرح يشوبه الهدوء ثم ما يلبث أن يضاء ثانية بنور أبيض قويٍّ يكاد يعشي النظر، يخفت مع الوقت تدريجياً حتى يظهر من خلاله واقفاً في وسط المسرح شاب أنيق في بدلة شديدة الرسمية، مفتول العضلات، ذو هيبة ووقار، ينظر بحدة ناحيتنا، ويقول:

- مساء الخير عليكم جميعاً.. أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم بالعرض المسرحي.. أود أنا أعرفكم بنفسي.. أنا أنور سليمان.. ضابط بالأمن الوطني.. أنا الضابط الذي كان مكلفاً بملف بهاء الله وزوجته ومريديه كما يقول والمحفل الديني الذي انشأه سراً

يتحرك الضابط بخطوات سريعة ناحية أقصى يمين المسرح يتبعه النور الأبيض كهالة تحيطه، وأكمل قائلاً:

- يظن بهاء الله أن يأتينا بدين من صنع شيطانه ويدعي تارة النبوة، وتارة يدعي الربوبية، ويريد أن يصنع له مجتمعاً خاصاً به كالمجتمع الإسلامي والمسيحي.. يريد أن نُثبت له نحن كدولة دينه في بطاقته الشخصية، يريد أن يبني دوراً للعبادة أسوة بقطبيّ الدولة، يريد أن يكون له مرجعية دينية يسمونها محفلاً كالكنيسة والأزهر.. استقطب العامة من الناس والفقراء والعلمانين والملحدين أمثاله ممَّن لا يريدون ضوابط أو قواعد بالكون غير ضوابطهم.. تلقى أموالاً من دول خارجية وأخرى معادية لتمويل نشاطاته، وكان على الدولة أن تتصدى له وتوقف تمدده.. منذ أن توليت ملفه وأنا أخطط لوأد مخططاته المعادية للدولة والتي تهدد الأمن والسلم العام.. تنكَّرتُ في شخصية محامٍ، وتقرَّبتُ منه ومن زوجته، وأقنعتهما أني أدافع عن الحريات الدينية حتى نلتُ ثقتهما، وعرفتُ عنهما كل شيء، وقبضنا عليه في الوقت المناسب، ووقفتُ أدافع عنه أمام المحكمة حتى قضي عليه بالسجن عشر سنوات.. لكنه بطريقة ما هرب من السجن، وها هو

كما رأيتم في المسرحية يريد أن يتقلد منصباً رفيعاً ليتمدد من خلاله.

شردتُ قليلاً.. فقد عرفته، ذلك الضابط هو نفسه المحامي الذي قابل زوجة بهاء الله، الآن فهمت لماذا طُويت أوراق قصته وكُتب عليها سري للغاية، وحينما عدتُ من شرودي انتبهتُ له على المسرح فإذا به يقول:

- إن بهاء الله هو الوجه القبيح لكل الجماعات الدينية، إنه وأمثاله بداية لسقوط المجتمعات المدنية المتحضرة.. احذروهم واستمروا في ثورتكم على كل ما هو رديء.. اعلنوها ثورة.. ثورة وأنا في ظهركم.. أنا داعمكم

سار الضابط حتى أقصى يسار المسرح، ووقف قليلاً يرمق الجمهور بنظرات قوية، ثم قال:

- ثورة.. ثورة

الثورة عدوى.. تجد طريقها للبشر بسرعة، تشحذ هممهم، وتثير عواطفهم، فيندفعون نحو إتيانها، فإن كانوا على دراية بآلياتها تفننوا في إنجاحها، وإن افتقروا لعوامل انجاحها انقلب السحر على الساحر وصارت وبالاً عليهم.. من السهل

أن تشعل الكلمة ثورة إن كتبت بصدق ولاقت قرباً من قلوب متلقيها

من السهل أن يشعل الفن ثورة إذا ضج بالصدق ولمس واقع الناس، من السهل أن يشعل الدم المراق بلا ذنب ثورة إن وجد من يسعى للقصاص له.. سرت العدوى من المسرح للمتفرجين في عربة القطار فنهضوا يحدوهم الأمل في نيل مبتغاهم.. رددوا في نفس واحد لا اعوجاج فيه

- ثورة.. ثورة

عرفوا وجهتهم؛ فاتجهوا ناحية رضا السلباوي يريدون الفتك به علت هتافاتهم ما بين:

- امسكوا القاتل
- لا تدعوه يهرب
- القصاص العادل
- الثأر لجنيدي
- ألقوه من عربة القطار
- ءأمر بضرب عنقه يا سيادة المفتش بسوط صاحبك

حينما تتعدد المطالب دونما داع يتشرذم المطالبون..

هاج الجميع وضجت العربة بصخبهم

اندفعوا ناحية الرجل صاحب السوط وحاصروه يريدون أخذ السوط من يده قاومهم

ضرب بالسوط يميناً وشمالاً؛ فتطايرت الرقاب

سالت الدماء

وصارت العربة أشبه بميدان معركة

صعد المفتش فوق الرف وجلس صارخاً في الجميع؛ فانتبهوا

- كفى.. كفى يا همج.. عليكم أن تهدأوا قليلاً حتى نرى ما في صالحنا.. أيها السيد، إنك من أشعلت الثورة وعليك أن تخمدها الآن حتى يستقيم الأمر في العربة ثانية

نظرتُ حولي فأحصيت القتلى فوجدتهم كُثر.. ووجدتُ الجرحى أكثر.. والدماء من شدتها زحفت حتى حافة أبواب العربة وسالت خارجها كمن يفرُّ من أمر ما.

أنا لم أشعل أية ثورات، ثم إن تلك ليست بثورة، إنها لا تعدو عن كونها حالة حماس صنعها عرض مسرحي أدت إلى كل تلك الفوضى، بدليل أنها لم تحقق شيئاً، وإن من هاجوا من أجل القصاص ما زالوا يقفون أمامي يضعون أعينهم في أعيننا جميعاً بلا أدنى خوف ينظرون للقتلى كمن يشاهدون أفلامهم الدموية على شاشات التلفاز

أنين يأتي من هناك يعلو على غيره يعقبه صوت موجوع يدعوني أن أقترب

أم جنيدي

اقتربتُ منها

الدم يسيل من رقبتها

نظرت لي، وقالت:

- اِثأر لجنيدي يا خالد يا ابن ممتاز

أنا خالد ممتاز، وأظن أن تلك السيدة لن تكذب

الولد.. أين الولد..؟ هل مات في هذه الفوضى الحماسية..؟ أين هو؟

- يا ولد.. أين أنت يا ولد؟

انخلع قلبي رعباً عليه واغتالتني كل الظنون بشأنه، ناديته.. فإذا به سليم معاف يدخل من باب العربة التي دخلنا منها أول مرة حاملاً بين ذراعيه جرواً صغيراً يداعبه فرحاً به

اقترب مني

خاض في الدماء دون أن يأبه

لم يشغله ما دار ولم يعر القتلى انتباها وكأن شيئاً لم يحدث

- نعم.. نعم ماذا تريد..؟ أليس من حقي أن ألهو مع صديقي الوفي قليلاً حالما تنتهون أنتم من مهاتراتكم وكوارثكم؟
- يا ولد، إن أم جنيدي قالت لي أني خالد ممتاز.. لقد عرفتُ من أكون.. أنا خالد ممتاز

نبح الكلب في وجهي، فقال لي الولد:

- إن صديقي الوفي يقول لك أن خالد ممتاز واحد من الرجال الثلاثة الذين مزقوا شراييـنهم من أجل أن يرفع الستار
- يا ولد ارحمني.. أنا خالد ممتاز
- إذن أنت خالد ممتاز.. دعني أرحل من تلك العربة قليلاً لألهو مع صديقي في العربة الأخرى حالما تنتهون من تنظيفها

استدار الولد ليخرج من العربة فإذا بأربعة رجال غلاظ يرتدون زيّاً أبيض يشبه زيّ العاملين بمشفى الأمراض العقلية يزيحون الولد من أمامهم حتى أوقعوه أرضاً واقتربوا مني ليقبضوا عليَّ

أمسكوني

ألبسوني عنوة القميص الأبيض.. قاومتهم

لم تفلح المقاومة

كانوا أشداء

سمعتُ أحدهم يهمس للباقين

- هيا ننهى مهمتنا وسط غياب وعي الموجودين وانشغالهم بثورتهم المزعومة ونعيد الدكتور للمشفى كما هرب منه.. وننال مكافأتنا من مديرها.. سيسعد كثيراً وسنسعد نحن أيضاً خاصة حينما نواجه الضئيل به ونشمتُ فيه.. كم أنا مشفق على الضئيل.. لا يعرف أننا ذوو بأس وقادرون على معرفة مكان الدكتور.

دعاني أحدهم بالدكتور، وحثَّني على مرافقتهم دون إبداء أية مقاومة كي يعيدني للمشفى الذي يتولى إدارته العجوز المتصابي، ولما حاولتُ إقناعهم بأن هذا الذي يدعونني بصفته كان واحداً من الرجال الثلاثة الذين ماتوا بتمزيق شراييهم حتى يُرفع الستار إلا أن قولي هذا لم يفلح في إقناعهم واقتادوني عنوة ناحية الباب الذي دخل منه الولد والذي نهض متماسكاً..

شد جسده الطفولي ونظر في عين جروه

نبح الجرو وقفز نحو الرجال الأربعة

خاض معركة مثل تلك التي خاضها من قبل من أجل الكلب والسيدة العجوز.. عقر من الرجال الأربعة مَن عقر.. وهبَّ في وجه مَن هبَّ.. وأقصى عني مَن أقصى

هاج مَن في العربة ثانية وطاحوا يثيرون الفوضى ويتبادلون السباب والشتائم واللكم والضرب واختلط الحابل بالنابل

وقتها استطعتُ الهرب منهم

اتجهتُ ناحية الرجل صاحب السوط

كل همي أن أنزع من يده السوط كي أسيطر على الوضع

كان ثقيلاً حينما انتزعته من يده عنوة

للحقِّ لم يقاومني الرجل طويلاً وكأنه كان عارفاً أني سأقدم على ذلك، وبدا لي أنه مرحب بذلك، ومقاومته القليلة لم تكن إلا لحفظ ماء الوجه

تخيرتُ مكاناً في العربة ليس به مشتبكون ورفعتُ السوط في الهواء وهويتُ به على الأرض فانتفض الجميع خوفاً ورهبة وكفُّوا عن العراك وانتبهوا لي

أمرتهم أن يتراصوا بجانب بعضهم

أطاعوا الأمر ووقفوا متراصين كأنهم في طابور عسكريٍّ

نظرتُ للسوط فعرفتُ سطوته؛ فانتشت نفسي للحظات وأحسستُ بالقوة

أصدرت لهم أمراً بتقييد كل من تورط في سفك الدماء، فبدأوا برضا السلباوي، وأعقبوه بصاحب السوط، وانتهوا بصاحب المصنع، ولمَّا أمرتُهم أن ينظفوا العربة من الجثث والدماء فعلوا دون أدنى رفض، ورموا القتلى من العربة

وقف الولد أمامي يطبطب على جروه ويثني على بطولته معي

ووقف خلفي مفتش القطار يطلب العفو والصفح عن صاحب السوط وينمق في الكلمات ويفهمني أني أجهله وأجهل كنيته ولا يجدر بى أن أفعل معه ذلك.

****

قلبتُ النظر في السماء فلم ألمح لها سقفاً وسط الظلام فعدتُ ببصري إلى العربة ثانية

الهدوء والسكينة يسيطران عليها.. لا، بل الخوف والرهبة من السوط الذي بيدي هما ما يسيطران عليها

كلٌّ في مكانه كما أمرتُ

الكل في انتظار إشارة مني لفعل أيِّ شيء

أنا الآن حاكمهم

وهل يصح الحكم لرجل لا يعرف عن نفسه شيئاً؟!

كيف لفاقد شخصه أن يحكم مَن هم أدرى بأنفسهم وربما به؟

على كلٍّ.. سأحكم حتى أصل لنفسي، وطالما السوط بيدي فمن المؤكد أني سأستطيع الضغط عليهم للوصول إلى هويتي

- من أنا..؟ أجيبوني وإلا قطعتُ رؤوسكم بالسوط

قلتُ لمن في العربة ذلك في محاولة يائسة مني لتجريب الترهيب والتخويف معهم.. فأجابني واحد منهم:

- لن تنال الحقيقة بالسوط.. الخوف لا يمهد درباً لها
- يا هذا.. كفاك فلسفة، إن كنتَ تعرف شيئاً إليَّ به، وإن كنتَ لا تعرف سوى فلسفتك تلك فاسكت
- لم يعد أمامك سوى من قرأت عنهم ومن نجى من تلك المذبحة التي حصلت منذ قليل، أما هؤلاء الباقون سوى مفتش التذاكر والولد والرجل صاحب السوط لا تعرفهم أنت ولن يبوحوا لك بهويتك.. لذا فلزاماً عليك أن تكثف مجهودك لانتزاع شيء منهم يوصلك إلى حقيقتك، ولا تنسَ.. رضا السلباوي محكوم عليه بالموت وعليك أن تُسرع بتنفيذ الحكم فيه كمطالب الثوار، أما صاحب المصنع فقد حكم على نفسه بالموت، نفذ فيه حكمه أيضاً

ضحك رضا بصوت عالٍ هازئاً من لفظة ثوار، وقال:

- ثوار.. أين هم الثوار يا هذا..؟! وهل كانت هناك ثورة..؟ إنها كما قال العمدة زوبعة في فنجان، وها هي قد خمدت في دقائق معدودة ولم تخلف لنا إلا الدم والهم والغم.. وكما قال جناب ابن العمدة هلال البلد وهلالنا انتفاضة سيلهون بها قليلاً وسيعودون لأداء دورهم السابق من الاستكانة والخنوع والذل.. يعجبنى كثيراً لفظة ثوار تلك، تذكرني بنفسي وأنا أشن الهجمات التي كنت أشنها على غيطان ومزارع وبيوت معارضين العمدة وابنه.. أنا ثائر أيضاً؛ فقد كان هدفي نبيلاً في تلك الغارات.. كنتُ أفعل ذلك من أجل صالح الكَفر والحفاظ على هيبة العمدة والأمن العام ومعاقبة المعارض حتى لا يؤثر على غيره ويحدث بلبلة في الكَفر وينفرط عقد رجاله
- قل لي يا رضا، من أنا..؟ هل تعرفني؟
- لماذا تشغل نفسك بمعرفة نفسك.. عش كما أنتَ هكذا صفحة بيضاء لا تعرف عنك شيئاً.. ما أدراك أنكَ إن عرفت حقيقتك سترتاح، ربما تكره نفسك.. وعلى كلٍّ أنت الآن حاكمنا.. أنت من بيده السوط.. هل تعرف أن ما ينقصك الآن رجل مثلي يكون ذراعك الذي تبطش به،

يحمل عنك السوط ويتبعك أينما رحت.. كن ذكياً كحسيب عمدة كَفرنا واغتنم الفرصة.. فها أنا أمامك الآن أعرض عليك نفسي فتقبلني تابعاً لك.. والتبعية تستلزم الصفح

ساد الصمت بعض الوقت فهُيّئ للجالسين أن رضا السلباوي استمالني بكلماته، فنهض من مكانه رجل هرم، أشيب الشعر، وقور، يرتدي فوق ملابسه زيّاً عرفتُ فيما بعد أنه روب المحاماة.. اقترب مني وربَّت على كتفي، قائلاً:

- كم أشفق عليك يا بني.. طبق العدل ولا تؤخره أكثر من ذلك.. القصاص يا بني.. كنتُ أتابع كل شيء لكني لم أشأ أن أتكلم.. والآن جاء دوري.. اسمح لي أن أتكلم وأفسر بعض الأحداث، وأبدي بعض الدفوع عن الأخرى، لعل الأمور تتضح فإني قد سئمتُ الغموض
- محكمة

قالها المفتش بصوته الجهوري، ونزل عن جلسته بالرف، وتقمص دور الحاجب، واقترب مني ودعاني بسيادة القاضي، وحثَّني على الجلوس مكانه على الرف، وساعدني في النهوض، ثم تلفتَ يميناً ويساراً يبحث عن الولد حتى وجده جالساً يداعب الجرو فأسرع نحوه وحمله هو وجروه وأجلسه بجواري على

الرف، وقال لنا بصوت خفيض أن نتحلَّى بالوقار؛ فنحن قضاة تلك الجلسة، والتفت عنا وقال بصوت عالٍ:

- محكمة

نهض الجالسون إجلالاً للمحكمة التي تشكلت بلا مقدمات منطقية، وشدَّ المفتش ظهره، وانتفخت أوداجه، ونظر لي، وأشار أن أتكلم.. فتنحنحتُ قليلاً واستجمعتُ شتات نفسي وقلت:

- فى سابقة قضائية من نوعها سنعقد محاكمة للجميع الغائب والحاضر.. الحي والميت.. الكبير والصغير في رول واحد.. وستنتدب المحكمة محامياً ليتولَّى الدفاع عن كل الأطراف.. أيها الحاجب هات الأحياء ممن سيتم محاكمتهم لنبدأ بهم؛ فالحيُّ أبقى من الميت، يتوق دوماً للخلاص

نادى الحاجبُ على رضا السلباوي كمتهمٍ أول، وعلى الرجل صاحب السوط كمتهم ثانٍ، وعلى الشاب صاحب المصنع كمتهم ثالث، فنهضوا مسرعين وتقدموا من الحاجب، فأمرته أن يفك وثاقهم.. ففعل ونحاهم جانباً، فوقفوا متلاصقين منتبهين ووجوههم في الأرض.. علا صوتي وفي تقمص فاضح لدور القاضي قلتُ:

- رضا السلباوي.. منسوب إليك تهمة قتل المدعو جنيدي

رفع رضا السلباوي وجهه وقال:

- قبل أن أجيب دعني أقصُّ على مسامع المحكمة قصتي مع العمدة حسيب

تداولتُ الرأي مع الولد فوافق بعدما تهامس مع جروه وعَّرفني أن رضا في هذه المره لن يقول إلا صدقاً فأومأتُ إليه بالموافقة، فتقدم خطوات حتى صار قبالتي ووضع عينيه في عيني وقال:

- يوماً ما كنا نلعب الكرة في جرن الكَفر وكان هلال ابن العمدة يلعب معنا، وكان العمدة يراقبنا من بعيد.. أنا كنت أعفى صبيان الكَفر وأوفرهم صحة، وكنت ذا مهارة فائقة في لعب الكرة، تمنيتُ يوماً ما أن أصبح لاعب كرة له شأن.. وبينما نحن نلعب أحرزتُ هدفاً في مرمى فريق ابن العمدة، فثارت ثائرته وصمَّم ألا يحتسب الهدف، أذعن الصبيان لطلبه إلاي، عارضتُ مطلبه بشدة، ولمَّا تطاول عليَّ بالضرب لم أحسب حسابَ أنه ابن عمدة الكَفر وأوسعته ضرباً.. أتى العمدة مسرعاً وانتشله من يدي.. وقتها نظر لي ملياً وفرك ذقنه وسحب ابنه من يده ومشى.. لم يغدُ يومان على هذا الحدث إلا وكنت في دوار العمدة خادماً خصوصياً له، أتولى كافة شئونه.. أخرجني

من المدرسة.. هل تعلم أني كنت زميلاً لخالد ممتاز وجنيدي وكنت متفوقاً مثلهما..؟ ولأني كنتُ يتيماً تتولى تربيتي خالتي لم أجد من يساندني ويقف في وجهه.. خالتي أم فردوس وزوجها قبل أن يموت ما صدقا أن ارتاحا من عبء تربيتي التي تعهدني بها العمدة، علمني كيف أصبح بلطجياً.. وبعدَ أن كنت أضرب ولده صرتُ أزود عنه، أصبحتُ في سن مبكرة تهابني الرجال وتخشى بطشي حتى باتت الأرض تضجُّ بأفعالى.. سيدي القاضي ليتك قبلتني ذراعك اليمنى أحمل عنك السوط بدلاً من محاكمتي، كان من الجائز وقتها أن أكفِّر عن ذنبي؛ فحمل السوط في الحق أسمى ما يتمناه أمثالي.. ليتك قبلتني ووجهتني شطر قبلتكم التي تدعون أن بها كل الطهر.. لكنكم تأبون أن تمنحوا أمثالي فرصة السير في ظلكم حتى لو على حافة دروبكم.. لن أنكر جريمتي أمامكم ولن أتنصل منها.. لكني لن أقبل محاكمتكم لي.. لأنكم بشر مثلي مخطئون ولستُ أقل منكم في شيء.. لا داعيَ لمحاميكم هذا ولا داعيَ أن تصدروا أحكاماً عليَّ.. دعوني أصدر الحكم على نفسي

نظر رضا السلباوي في سقف العربة قليلاً كمن يستجدي الإذن من قوة ما، قوة أعلى من سقف العربة، قوة تكمن خلف السماء بفعل ما سيقدم عليه.. واستدار معطياً ظهره لي وراح ناحية باب العربة.. ناديته وكأنَّ قلبي قد شعر بما سيقدم عليه، حاولتُ إثناءه عن عزمه.. فردَ يديه في الهواء كطير على عتبة قفص فُتح للتوّ ورفع رأسه قليلاً وزجَّ بجسده فالتقمه الظلام في بطنه ولم يُسمع له حس أو استغاثة.. شهق الجالسون شهقة فزع لكن أحداً لم يعلق على ما فعله رضا السلباوي حتى أني لمَّا تأمَّلتُ نظراتهم لأستكشف ردَّ فعلهم على ما حدث شعرتُ ببوادر الارتياح على وجوههم تجتاحهم وكأنَّ لسان حالهم يقول "في داهية".. لصوت رضا صدى في أذنى.. سيدي لا تسعَ لمعرفة حقيقة نفسك.. كن كما أنتَ الآن

- سيدي القاضي، هل ننادي على المتهم الثاني؟

قال ذلك المفتش وغمز لي بعينه فيما معناه أن أنتبه وأعود من شرودي وأنحي ما حدث جانباً وأتابع سير الجلسة وكأنَّ شيئاً لم يحدث، ونادى على الرجل صاحب المصنع فانتبه.. نظرتُ له طويلاً وقلتُ متعجباً:

- ما تهمتك؟ أراك بلا تهمة وأنت تصرُّ أن تنسب لنفسك تهمة قتل (أبو السيد).. هو رجل انتحر بمحض إرادته دون أن تقربه.. لماذا إذن تتهم نفسك بقتله؟
- سيدي أنا قاتل.. قتلته عامداً.. قتلته معنوياً فألقى بنفسه من سطح المصنع.. سيدي القتل المعنوي أبشع أنواع القتل.. يتمنى مَن يعايشه أن تُزهق روحه في لحظته وتوه خيراً من أن يبقى طويلاً في دائرته.. (أبو السيد) ليس من الصنف الذي ينتحر بسهولة، فكيف لرجل مقاتل مثله أن يقدم على فعلة كتلك دون أن يكون قد وقع تحت تأثير ضغط نفسي رهيب..؟ أنا قتلته.. قتلته مرتين؛ مرة حينما رفضتُ أن أمنحه زيادة براتبه طيلة خمس سنوات، ومرة حينما تطاولتُ عليه بالسبِّ والشتم.
- هوِّن على نفسك.. أراك تضخم الأمر أكثر من اللازم.. (أبو السيد) اختار أن يُنهي معاناة جيل بأكمله في شخصه.. وإني لأظنه كان سيفعل فعلته تلك عاجلاً أم آجلا بسببك أو بدونك.. هوِّن على نفسك.. (أبو السيد) اختار أن يموت ميتة المحاربين الذين يحملون أسراراً عسكرية وتمَّ

أسرهم، ولما كان عندهم أوامر بقتل أنفسهم حتى لا يبوحون بتلك الأسرار فقد فعل مثلهم وحذا حذوهم.

- أنا مذنب وأريد أن أتخلص من عقدة الذنب التي تطوق رقبتي.. انظر إلى يدي إنها غارقة بدمه.

بدا الشاب عصبياً، وبدأ يتحرك كثيراً في المكان، وبدأ يُحدث به جلبة وضجة حتى شعرت أني سأفقد السيطرة عليه، إلا أن المحامي نهض مسرعاً واقترب مني طالباً السماح لزوجته بالمثول بين يديّ المحكمة للإدلاء بشهادتها وأخرج من جيبه وثيقة زواج تناولتها منه وتأكدتُ من صحة طلباته.. فأذنتُ له وأصدرتُ إلى الحاجب أمراً بالنداء عليها.

- زوجة المتهم

قالها الحاجب فنهضَت

فتاة نضرة

لها وجه يسرُّ الناظرين

تتحسَّس الطيبة وصلاح الأصل فيه

وتشتمُّ عبق الفضيلة في خطواتها

اقتربت أول ما اقتربت من زوجها

احتضنته

بكى.. فأبكاها

تناولَت كفيه ووضعتهما على وجهها وراحت تمسح خديها فيهما، وقالت له:

- يداك لم تقترفا إثما ولم تُلطَّخا بدماء أبي.. يداك طاهرتان، قلتُ لك ذلك مراراً.. هوِّن على نفسك.. وأنصت جيداً للمحاكمة فبراءتك هنا في تلك العربة.

التفتت عنه الفتاة واقتربت مني ووقفت بجوار المحامي وهمست له تستأذنه في الحديث بدلاً منه، فأذن لها وتراجع قليلاً، فقالت:

- أنا ابنة (أبو السيد) الكبرى وزوجة هذا الشاب البائس الذي ما رحم نفسه قط من تأنيب الضمير.. طيلة السنوات التي تلت رحيل أبي وهو يحمل في نفسه عقدة ذنب انتحاره.. أراه كان مخطئاً في معاملاته لأبي، لكن كانت له أعذاره التي تستوجب رفع العبء عنه وفك عقدة الذنب التي تعتصره كمداً.. زوجي يا سيدي لم يقصر مع أبي منذ أن رآه يهوى أمام عينيه وتلطخت أرض المصنع بدمائه؛ نقله على الفور إلى المشفى ولم يقصر في علاجه طيلة غيبوبته التي استمرت ثلاثة أيام، كان أبي فيهم رافضاً للحياة.. زوجي يا سيدي تحمَّل عبء أشقائي جميعهم لم

يقصر مع واحد منهم في نفقات أو رعاية.. تزوجني يا سيدي وأنا لم أرقَ بعد إلى مستواه العلمي والمادي والاجتماعي وأحسن معاشرتي وساندني حتى صرتُ أليق به.. ظننتُ أنه فعل ذلك من أجل أن يكفِّر عن ذنبه الذي يشعر بعقدته كما ترون لكن ما رأيتُ منه كان غير ذلك.. أنا من قصصتُ عليه قصة أبي حتى حفرتها بداخله وحتى بات يقصُّها على الجميع ببراعة وكنوع من التباهي برحلة كفاحه.. أبي كان بطلاً، ومات بطلاً ولن أبخسه حقه لانتحاره.. هناك آخرون كانوا سبباً في انتحار أبي

عبد الناصر كان سبباً في انتحاره حينما زجَّ به في حرب اليمن ورماه بعد ذلك في الصحراء يلملمُ أشلاء الجنود حتى طيرت شظية إصبعه ذات يوم من أيام النكسة.. السادات كان مخطئاً حينما أحاله إلى المعاش دون أن يجزل له العطاء؛ فالمعاش كان يكفي بالكاد حتى اضطر للسفر.. الدولة والنظام الحالي كانا سبباً في انتحاره، لم يقدراه هو وأمثاله حق التقدير ولم يضمنا لهم حياة كريمة، تناسيا أن أبي وأمثاله هم من أتوا لنا بالاستقرار.. الغلاء المتزايد وكثرة العيال كانا سبباً في انتحار أبي.. إن

ما فعله زوجي بعضاً يسيراً من كل هذا.. سيدي، إن الكثيرين بيننا يشبهون (أبو السيد).. يشبهون أبي وهم على حافة الانتحار.. أنقذوهم إن استطعتم وحاكموا مَن يدفعون بهم إلى حافة إلى الهاوية واتركوا لي زوجي فله بنتان ينتظرانه

أعجبتُ أيما إعجاب بقول الفتاة، لم يكن ألف محام سيجيدون في مرافعتهم كما أجادت، وتداولتُ الرأي مع الولد، فقال لى:

- افرج عنه وسلِّمه لزوجته، وراءهم كوم لحم.. يكفيه ما لاقاه من تأنيب ضمير

أشرت للفتاة أن تقترب مني وهمستُ لها إن كانت تعرفني أم لا، فقالت لي أنها لا تعرفني أبداً ولم ترني من قبلُ، فطلبتُ منها أن تسأل زوجها بطريقتها فأنا لا أستطيع الحديث إليه وهو على هذا الحال.. فاقتربت منه وهمست له فرفع رأسه ناحيتي وتأملني ملياً ثم هزَّ رأسه بما يفيد أنه لا يعرفني.. ضربني اليأس وشردتُ قليلاً في اللا شيء ولم أعد من شرودي إلا حينما سمعتُ الحاجب يعلن براءة الشاب ويأمر زوجته باصطحابه والجلوس مع الجالسين في هدوء، وبصوته الجهوري نادى على الرجل صاحب السوط، فانتبه وانتظر أن أبدأ محاكمته:

- أيها الرجل صاحب السوط، ما اسمك الحقيقي؟
- لا أعرف، منذ أن نما لي وعي وإدراك والناس ينادونني في كل القطارات بالرجل صاحب السوط
- طيب يا صاحب السوط منسوب إليك تهمة قتل الثوار؟
- رحمك الله يا رضا السلباوي.. أيُّ ثوار هؤلاء يا سيادة القاضي؟! إنهم كما ترى شرذمة من الغوغائيين ومثيري الشغب والفتنة.. ماذا فعلوا كي نطلق عليهم ثواراً..؟! كل مافعلوه أن تركوا رأس الأفعى العمدة حسيب وابنه والعجوز المتصابي وهذا الكافر بهاء الله وثاروا من أجل القصاص من هذا المغلوب على أمره الذي ترك لكم الدنيا بأسرها وحكم على نفسه بالموت.. ثاروا حينما شاهدوا عرضاً مسرحياً.. فهؤلاء لا تحركهم إلا الشاشات الملونة وأكاذيب الرويبضة وأداء المأجورين.. أما أنا فقد كنتُ أزود عنك وعمَّن بالعربة ولولا وجودي لما كنتَ أنتَ، ولما كان سيادة المفتش، ولما كان هذا الرجل الذي يرتدي روب المحاماة، ولما كان هذا الولد، ولما كان جروه.. وصدِّقني كنت سأقف موقفي هذا إن لم أفعل ما فعلته، كنت

سأحاكم بتهمة التقصير في حمايتكم.. وأنا أطلب شهادة سيادة المفتش.

ارتبك المفتش ودار حول نفسه قائلاً:

- يا سيادة القاضي أنا لا أريد الشهادة في تلك القضية؛ فشهادتي مجروحة لما تربطني بهذا الرجل من صداقة وعشرة عمر.

همس لي الولد قائلاً:

- اضغط على المفتش وأنت تسمع منه درر القول
- يا سيادة المفتش إني آمرك بالإدلاء بشهادتك الآن وإلا اعتبرتك ممتنعاً عن تنفيذ أمر المحكمة وعاقبتُك على الفور.
- سيدي القاضي.. اعفني.
- لا عفو.. إدلِ بشهادتك الآن وإلا نلتَ العقوبة.
- أنا يا سيدي القاضي شاهدتُ مندسين كثراً بين الثوار بأيديهم أسلحة بيضاء يقومون بطعن الثوار بها في ظهورهم، أما هذا الرجل والله لم أرَ عليه شيئاً.. وهو وسوطه بريئان براءة الذئب من دم ابن يعقوب

ضحك الولدُ ونبح جروه فسكت المفتش عن الكلام وانطفأت ابتسامة الرجل صاحب السوط والمحملة بكل الخبث البيِّن، واقترب مني هامساً:

- صاحب السوط يعترف بجرمه والمفتش ينفي عنه الجرم بمنتهى الفجاجة.. يحدثك عن مندسين وكل مَن في العربة معدودون على أصابع اليد الواحدة.. على كلٍّ استدعِ الدفاع كي نرى ما في جعبته هو أيضاً.
- ليتفضل الدفاع.
- سيدي القاضي.. كنتُ أظن أني سأتولى الدفاع عن شخص بعينه.. كنتُ أظن أني سأفنِّد الدفوع وأسوقها على مسامع المحكمة دفع وراء الآخر.. لكني وجدتُ نفسي في حيرة من أمري عمَّن سأدافع؟ عن القاتل أم المقتول.. عن المتهم أم المجني عليه.. عن سافك الدماء أم المسفوكة دماءه.. سيدي القاضي جميعهم مذنبون وجميعهم ضحايا.. رضا السلباوي البلطجي القاتل المأجور مذنب لأنه أقدم على تلك الأفعال بمحض إرادته الحرة، كان من الممكن أن يقف في وجه العمدة ويمتنع عن فعل كل تلك الجرائم، كان من الممكن أن يترك له الكَفر ويرحل، كان من الممكن أن

يفعل الكثير، فكما رأينا منه أن له منطق وحلاوة في الكلام لم يؤتيا لمثله، وله رجاحة في العقل قلَّما تتوفر لمجرم، وإلا ما كان أنهى حياته بيده بتلك الميتة التي أثبتت لنا صحة المثل القائل "بيدى لا بيد عمرو"..

رضا السلباوي البلطجي القاتل المأجور على الجانب الآخر ضحية المجتمع والظروف، ودعني أستعير جملة كُتبت في سياق الأوراق التي قرأتها عدالتكم عما جرى بين رضا السلباوي والشخوص الأخرى بالقصة.. رضا خيبة نظام أفرخ في طول البلاد وعرضها ألف ألف رضا السلباوي.. نعم سيدي القاضي امتلأت مجتمعاتنا بألف ألف رضا السلباوي صُنعوا بطرق شتى قد تختلف عن الطريقة التي صنع بها العمدة حسيب رضا السلباوي لكنهم جميعاً يتلاقون في نقطة واحدة وهدف مشترك صُنعوا من أجله؛ أن يصبحوا أدوات للبطش في يد السلطات الحاكمة لتلك المجتمعات.. رضا السلباوي وأمثاله خيباتنا نحن من نسمى أنفسنا الشرفاء لأننا لم نقوِّمهم ولم نقوِّم ونقاوم مَن صنعهم.. أمثال رضا السلباوي مسيرون لا مخيرون لكن من قِبَل صانعيهم لا من قِبَل خالقهم.. إن كان هناك مذنب

في تلك القضية يا سيدي فهو العمدة حسيب وابنه وشيخ الخفر، أين هم سيدي؟ لم نرهم إلا على خشبة مسرح وهمية فلا يجدر بأمثال هؤلاء الظهور في الحقيقة لأنهم باختصار يتمتعون بحمايتنا لهم، تركوا لنا رضا السلباوي كبش فداء ومن أجل تلك اللحظة صنعوا رضا السلباوي.. سيدي القاضي عند هذا الحد أُنهي مرافعتي وأود أن ألفتَ نظر المحكمة أنَّ بموت رضا السلباوي لم تعد هناك قضية.. وأعلن انسحابي من الدفاع عن الرجل صاحب السوط.

- لكنك قلت قبل ذلك أن لك وجهات نظر فيما حدث ولم تبدِ غير وجهة واحدة في قضية رضا السلباوي، أين باقى وجهات نظرك..؟ ولمَ تريد الانسحاب من قضية الرجل صاحب السوط دون إبداء ثمة دفع واحد يجعل المحكمة توافقك على هذا الانسحاب.

تلعثم المحامي ولم يستطع النطق وراح يخلع عنه الروب وحاول أن يهرب من الإجابة ومن ساحة المحاكمة ليعاود الجلوس بين الجالسين لكني استوقفته بناءً على أمر صادر من الولد همس به إليَّ وحثَّني على سؤاله عن عدة أسئلة وجهتها له قائلاً:

- من أنت؟ ما اسمك؟ وما علاقتك بـ "لي لى"؟ ما علاقتك بالعجوز المتصابي والعمدة حسيب وابنه؟ ما علاقتك بالرجل صاحب السوط ولماذا لا تريد الدفاع عنه؟

استدار ناحيتي وقال في ارتجافة لم أعهدها منه منذ أن رأيته

- يبدو أن أمري قد انكشف.. وسأجاوبك على الملأ عن كلِّ أسئلتك ربما تنزاح صخرة الذنب من على صدرى.. ربما أرتاح.. نعم سأرتاح فأنا رجل قانون وأعلم أن المذنب حينما يقرُّ بذنبه تسري الطمأنينة بأوصاله؛ فالإنسان منَّا بداخلة نقطة ضوء لا تُضيء له الطريق إلا بعد أن يقرَّ بذنبه وينفض عنها تراب الخطيئة.. هل تعلمون أيها السادة أن كل الأديان السماوية أكدت على مبدأ هام وهو الإقرار بالخطيئة وعلى نهجها سارت الأديان الأرضية التي صنعها الإنسان.. يبدو أن كل تلك الأديان أيقنت أن لا سبيل من إزاحة حجر الذنب عن صدر الإنسان إلا بالاعتراف.

- ما اسمك؟

قلتُ له ذلك محاولاً مقاطعة خطبته العصماء فقد كنتُ أتوق لمعرفة حقيقته فقد مللتُ الجهل بالأشخاص يكفينى جهلي بحقيقة نفسي.. ربما من عند معرفة حقيقة هؤلاء أصل لحقيقتي

- أنا سيادة المستشار الذي قرأت عنه.. مستشار سابق بمجلس الدولة ومحامٍ بالنقض الآن.. أنا من طردتُ المحامي من مكتبي وأحرقتُ أتعابه أمام عينيه لمَّا عرفتُ أنه حضر تحقيق نيابة في قضية من قضايا الآداب.. طردته لأنه خالف تعليماتي.. تعليماتي التي تنص على: لا عمل في قضايا الآداب؛ فمن عمل فيها إما أن يصبح داعراً أو قواداً.. لا عمل في قضايا المخدرات؛ فمن يعمل بها فقد صار قاتلاً أو مخدراً دوماً أو تاجراً.. لا عمل في قضايا السرقة؛ فمن يعمل فيها فقد صار شيخَ منصر.

تراجع سيادة المستشار حتى صار قبالة الرجل صاحب السوط ووضع عينيه في الأرض وقال لي:

- سيادة القاضي.. أنا مذنب أظنني أنا السبب فيما آلت إليه الأمور بين المحامي ولي لي.. لو كنتُ أفهمته بالعقل أنَّ ما فعله خطأ وأعطيته فرصة للعمل بالمكتب ثانية ما كان ارتمى في حضن "لي لي" وما كان راح إليها وما كانت

قابلته ثانية.. لكني أخطأتُ.. حَرمته من أتعابه وأحرقتها أمام عينيه.. كنتُ معتقداً أني أؤدبه وأعطيه درساً لكني لم أكن أؤدبه.. كنتُ أضره وأتركه فريسة للحاجة والعوز.. الإسراف في العقاب يأتي بنتائج عكسية.. صدقني كنتُ أود إرجاعه إلى عمله ثانية لكن بعد أن أتركه قليلاً بلا عمل.. كنتُ أود تجويعه.. لكن القدر كانت له اليد العليا في تسيير الأمور بعيداً عن إرادتى.. عقدة الذنب تكاد تفتك بي.. أنا السبب فيما آل إليه حال لي لي بطريق غير مباشر.. كم أشفق على تلك الفتاة.. ما فعلته بالمحامي رسَّخ بداخله أن أمثالها لا يستحقون الحياة في كنف أمثاله رغم أن الفتاة ضحية لا ذنب لها فيما كانت فيه.. إنها ضحية المجتمع أيضاً.. كم ألوم نفسي دون أن أدري.. صرتُ سبباً في انحطاط مجتمعي خطير.. نحن أبناء المجتمع الواحد تسلمنا أفعالنا لبعضنا البعض، إن أخطأ أحدنا امتدت آثار الخطأ لكافة الأفراد، وإن أصاب أحدنا انعكس الصواب على الكافة لكننا لا نفهم ذلك لا نفهم أننا كلنا في بكرة خيط نكر بعضنا البعض.. لي لي.. آسف يا ابنتي، لا أملك لك ولابنتك إلا الأسف.. يا له من وغد هذا العجوز المتصابي..

أليس له قلب؟ يصل به الحال لهذه الدرجة.. يتاجر بأعضاء طفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة.. كنتُ أعرف عنه أنه بلا ضمير لكن لم أكن أتوقع منه ذلك.. كم دافعتُ عنه ونلتُ له البراءات في قضايا عديدة.. وتلك المصيبة وضعتُ تعليمات لمن هم دوني لم أضعها لنفسي ارتضيت أن أعمل في قضايا لا تقل حقارة عن القضايا التي أصدرت تعليمات بعدم العمل بها.

سكت سيادة المستشار قليلاً وبدا على وجهه الإعياء والنَّصَب فعرضتُ عليه الجلوس قليلاً للراحة لكنه أبى واستكمل، قائلاً:

- رجال السلطة تواقون للعمل مع أمثالي من رجال القانون. وأمثالي من رجال القانون لا يملأ أعينهم صنف من الموكلين إلا هؤلاء وتابعوهم من رجال الأعمال والطبقة التي تسير في أذيالهم ومن هنا كانت صلتي بالعمدة حسيب وابنه وأعيان الكَفر.. هل تعلمون يا سادة أني موكل بالدفاع عن العمدة حسيب وولده أمام المحكمة المختصة؟ هل تعلمون أني أعلم مدى ظلمهم وجبروتهم لكني ماضٍ في عملى من أجل إثبات براءاتهم؟ هل تعلمون أن مَن وكلني شيخ الخفر ودفع أتعابي العجوز المتصابي؟ هل

تعلمون أن ثمة لعبة تحاك في الخفاء لقرص أذن العمدة وولده ومن بعدها سيخرجان سالمين ليكملا بقية دورهما في تلك المسرحية التي شاهدتموها؟

- اسكت اسكت يا سيادة المستشار، ما هذا الذي تقوله؟

نغزه الرجل صاحب السوط في ظهره وقال له ذلك، ولما لم يلقَ فعله هذا لديَّ قبولاً؛ نهرته بشدة ولوحت بالسوط في الهواء فارتهب الرجل واعتذر وأكمل سيادة المستشار كلامه، قائلاً:

- إن هذا الرجل لا أعرفه على وجه التحديد معرفة شخصية.. هو ليس موكلاً عندي وليس رجلاً ذو شهرة ممن أعرفهم ولم أقابله من قبل كمتهم أو مجني عليه.. لكن هناك أمر غريب، هذا الرجل دائماً ما كنتُ أراه منذ أن كنت قاضياً.. كنتُ أراه دائماً في قاعات المحكمة حاملاً حقيبة في يده، للحظات كان ينتابني أن بداخلها رأس إنسان فتنتابني الرهبة منه فأحجم عن الفصل في القضايا التي أرى وجهه في جلساتها.. كثيراً ما كنتُ أراه ماسكاً سوطه وواقفاً بجانب المنصة تارة، وبجانب قفص الاتهام تارة، لم أكن أستطيع طرده خارج قاعات الجلسات، كان يرهبني بنظراته ويعقد لسانى.. ذات يوم ظلَّ يطاردني في

كل مكان أروح إليه حتى ظننتُ أنه سيحصد رأسي بسوطه.. كان سبباً في أن أُعجِّل بطلوعي على المعاش وتركي القضاء، كنتُ معتقداً أنه سيفارقني وسأنجو من ملاحقاته.. إلا أني فوجئتُ به هنا.. سيادة القاضي أحكم عليه بالإعدام، أنا أثق أنه شخص سيء.. الشخص الذي تنتابك الآلام من رؤيته هو شخص سيء.. الشخص الذي يرهبك كلما طالعت وجهه هو شخص سيء.. الشخص الذي يحمل سوطاً في يده ليرهب به الناس هو بالطبع شخص سيء.. احكم عليه بالإعدام.. لا تتركه يعيش بيننا

- اسكت يا سيادة المستشار.. اسكت

قالها الرجل صاحب السوط وراح ناحية المستشار وأمسكه من كتفه وراح يهزه بشده.. ضجَّت القاعة بالاعتراض على ما يفعله وخبا صوت المستشار.. وتعالى صوت الحاجب يحث الجميع على الهدوء.. نبح الجرو وطرقع السوط في الهواء لكن الأصوات لم تخبُ ولم يكف أيَ واحد عما يفعله.. ما عاد للسوط رهبة وما عاد له تأثير على النفوس

هدأت أنفاس المستشار، خبت في صدره

ما عاد له حس

حينما تركه الرجل صاحب السوط سقط على الأرض.. سقط الحجر من على صدره فيما يبدو فخفَّت روحه

حلَّقت بعيداً عن جسده

تراجع الرجل صاحب السوط بعيداً بعدما لكزه بقدمه ليتأكد أنه مات

نهض الجالسون

نهض الولد، فقفز من يده الجرو ناحية جسد المستشار وراح يحوم حوله ويلعقه وينبح في وجه الرجل صاحب السوط

اقترب الحاجب من الرجل صاحب السوط وربت على كتفه وفي هدوء قال له

- لا تخشَ شيئاً.. قدَّر الله ونفذ.. على كل حال كان سيموت.. كان لابد أن يموت.. معلومات وصلتني أنهم أرسلوا في أثره مَن يتخلص منه.. ما عادوا في حاجة إليه، قالوا أنه هَرِم وضربه الخرف.

جلس الواقفون تباعاً بعدما ألقوا إلى جسد المستشار بنظرات الحسرة والألم.. هذا كل ما فعلوه.. كنتُ أظنهم سيثورون لمقتل الرجل ويفتكون بقاتله لكنهم خيَّبوا ظنوني.. وسرى الضجيج بينهم ثانية.. سمعتُ أحدهم يقول:

- ما لنا وما لهم، هم أكابر القوم وعليته لا شأن لنا بهم

قال آخر:

- نعم.. صدقتَ يا رجل.. نحن قمنا بثورة قبل ذلك ماذا حدث..؟ لا شيء

قال ثالث:

- إننا جوعى نريد أن نأكل.. أم سنُحرم من أبسط حقوقنا وهى الطعام من أجل حرب تدور بين أكابر القوم

قال رابع:

- إذن هيا نبحث عن طعامنا.. وإن لم نجده فلنعلنها ثورة من أجل الطعام.. وإن وصل بنا الأمر لنهش لحومهم فلنفعل

كان هذا الرابع أكثرهم تأثيراً بالقول؛ فقد التفَّ حوله الجميع وتقدَّمهم حتى حاوطوا جسد المستشار وانكبوا عليه

تقدم المفتش مني ومن الولد وطلب منا الاحتماء في ظهره

تقدم الرجل صاحب السوط وتناول سوطه ودعانا أن نسرع إلى مؤخرة العربة ولنصعد فوق سطح القطار

وهنا سمعتُ نباح الكلب كأنه عواء ذئب

ورأيتُ آخر ما رأيت

دماء تزحف كالرقطاء تجتاح كل الأشياء التي بالعربة

تقترب من حواف أبواب العربة وتسيل على وجه الظلام

الفصل الأخير

ليلاً.. بلا انتهاء ممتد أمام ناظري
لا نجمة واحدة فيه
لا ضوء
ظننت للحظة أن لا سماء
القطار على القضبان عنيف
يصنع ضجيجاً أحببته تلك المرة.. طربتُ له
يحمله الهواء إلى الأسماع وكأن لا صوت في الكون غيره
العربات تجرى فيُهيء لك أنها تود اللحاق ببعضها البعض
فلا واحدة تلحق بالأخرى
أعدو على سطحها كجنيٍّ يفعل الأعاجيب
لي رشاقة لم أحسبها في نفسي طيلة اليوم حتى أني أتحرك كريشة
في وجه الريح
أفرد ذراعي وأنا أستقبل الهواء في صدري
لا رهبة لدي وأنا أعدو فوق سطح القطار السائر بكل قوته
خلفي الولد سعيد فرد ذراعيه فبديا كجناحيّ عصفور صغير
رقص على وقع أنغام نَمَت إلى مسامعه هو فقط

رقصتُ معه.. قلَّدته

انتشيت للرقص

كان المفتش جالساً القرفصاء يتابعنا والابتسامة على وجهه، يدخن سيجارة أخرجها من جيبه وأشعلها، فكلما كان يشدُّ نفساً كنتُ أرى الكون في توهجها حتى بدت في عينى هى مصدر الضوء الوحيد

قال المفتش بعدما نهض:

- لا تنسَ أن تحكي حكايتي.. حكايتي التي قصصتها على أسماعك قبل أن ترقص هكذا.. أنا سأرحل الآن.

قلتُ له متأثراً:

- إلى أين؟

ألقى سيجارته في وجه الهواء فتطايرت خلف شررها، وقال بأسى:

- انتهى دورى

قلتُ له:

- لمَ آثرت أن تكون حكايتك آخر الحكايات؟

هزَّ كتفه:

- لا أعرف.. إنها أدوار.. كل واحد ممَّن رأيتهم يعرف دوره وحدوده.. وهذا دوري
- هل تعرفني يا....؟
- قلها ولا تخشَ شيئاً
- هل تعرفني يا ابن قوادة الحي؟
- نعم.. أعرفك.. أنت صفحة هذا العالم البيضاء.. ودعني الآن أرحل الفجر سيؤذن حالاً وعليَّ أن أنهي ما تبقَّى من دوري.

ومضى المفتش حتى صار على حافة العربة قبل الأخيرة فهبط عنها حتى صار بينها وبين العربة الأخيرة وقام بفصل العربة الأخيرة عن القطار ووقف على بابها يلوِّح لي بيديه، ويقول:

- كن كما أنت صفحة هذا العالم البيضاء.. اسمع.. كن أنت الراوى العليم بكل مجريات الأمور

تأرجحت العربة الأخيرة على القضبان لمَّا انفصلت
بدت في عيني كطفل صغير بالكاد يحبو
رمته أمه في درب معتم وفرَّت من أمام عينه
تتبَّعها بنظره وحَبَا بما أوتي من قوة ليلحق بها لعله يتعلق بذيلها

كان القطار سريعاً وازداد سرعة فكان في عيني كتلك الأم التي رمت ابنها وما صدقت أن تخلصت من عبئه وهرولت بعيداً

غابت العربة عن عيني في الظلام

ابتلعها

وابتلعني الشرود

لم أصل لشيء.. أنا ما زلت بلا هوية

- يا ولد يا!!!!!!

التفتُّ حولي فلم أجده

قطعتُ سطح القطار رواحاً ومجيئاً.. لم أعثر له على أثر

هل انتهى دوره هو الآخر؟

ربما..

لماذا لم ينتهِ دوري أنا الآخر؟!

ما زال لي دور

ما زالت عندى حكاية يجب أن أرويها

سأرويها بلسانه

وكأني أنا هو

سأرويها بلسان الراوي العليم بكل مجريات الأمور...

-٧-

أنا ابن قوادة الحي

بيتنا لا يفتح إلا لطالب سوء

وراغب متعة حرام

ومدمن خمر أو مخدر

تلك حقيقة لم أغفلها منذ أن نما لي إدراك ووعي

أحمد عبد الحميد منصور ليس اسم أبي

اسم زوج خالتي منحني إياه كي يمنح لي وجوداً شرعياً في المجتمع

أنا ابن أمي

ولا يهمني أيّ رجل ألقى ببذرتي في رحم الحياة

أهل الحي على علم بتلك الحقائق

تلوكها أعينهم قبل ألسنتهم ليل نهار

لكن ماجرؤ أحد منهم على مواجهتي

فأمي صنعت مني سيدهم وكبيرهم.. بل وحاكمهم

أنا مقرضهم ودائنهم

أنا معزيهم ومهنئهم

وفي إحدى صلواتهم تخيَّروني إماماً لهم

لى جلسة على مدخل المقهى المقابل لبيتي.. تلك المقهى التي صنعتُ منها الأشهر بالحيِّ يتحلق فيها الرجال حولى.. ينفثون في فضاءاتها سحابات الدخان.. وعلى حسابي يرتشفون قهوتهم الصباحية.. وفي ظلِّ سطوتي لا تكف أفواهم عن الضحك والسعال.

أوتيت جسداً ضخماً.. له من القوة ما أوتى لرجلين

ووجهاً رجولي الملامح به من الحدة ما يوقع في نفس الناظر هيبة

في المساء أغلق باب بيتي على كل من سويتُ له متكئاً من روادي

مَن هم روادى؟

هم الغارقون في كل صنوف الملذات.

هم رجال علا قدرهم أو حط وكذا نساء.. وأمي.. تلك المتصابية التي لم ينل منها الزمن.

تصير مساءاتى كما يحلو لروادي إلا بداياتها فتصير مقاليدها في يد أمي

تفقدها بعد لحظات معدودة من الإتيان على ما في جيوب الرواد من مال..

لا قانون يحكم مملكتنا إلا قانون أمي

ولا ملاحقات بوليسية طالتني أو طالتها بعد آخر قضية لها منذ عشرة أعوام خلت.

فحراس مملكتنا هم أنفسهم حراس القانون والعدالة.

لي قلبٌ بيد أن التيه انتزعه مني وأخفى عني معالمه.

لا أعلم إن كان هو العالق بين أفخاذ الساقطات.

أم اللاهث خلف بريق المال.

أم هذا القابع دوماً على أعتاب نجاسات أمي.

لم أبصر معالمه إلا حينما أبصرتها.

****

صبيحة يوم من أوائل أيام اندلاع ثورة يناير صدرت أوامر لأمي أن ترسل عاهراتها وكل رجالي إلى عمق الميدان للاندساس بين الثوار والتربص بهم لتحيُّن الفرصة للاشتباك معهم والتعدِّى عليهم بالضرب، ولمَّا كانت تلك الأوامر فرض عين علينا سقتُ أتباعي وأغرتُ على قلب الميدان.

لم تهزني هتافات الثوار

لم تحرك بداخلى مطالبهم شيئاً

- أيُّ مطالب تلك التي يريدونها من عين الحياة؟! ألا يكفيهم أن لهم آباء خرجوا من أصلابهم -

قرعتُ طبول نفسي المهلهلة بالدونية فاشتعل أتون المعركة

عدوتُ في ساحتها كذئب عطشٍ لدماء فرائسه

بطشتُ بكل مَن طالته يدى

استقوى الثوار بتآذرهم.. ولم تكن الغلبة لي.. فقد كانوا أشد ثباتاً..

وكانت هي أشدهم

كانت تهتفُ بعزم ما فيها "أن لاظلم بعد اليوم ولاعذر لبقاء ظالم"

أبصرتها في رداءاتها المحتشمة وتحجيبتها الوردية بعين غير العين التي أبصرت بها كل نساء الأرض

ربة جمال تخلَّت عنها السماء في خضم معركة أرضية

أنثى نورية التكوين تجاهد من أجل البقاء

صرختُ لمَّا نال منها عاهراتي وأوسعنها ضرباً ومزَّقنَ لها رداءاتها فتعرَّت

لم تكن لصراخاتها صدى إلا في أذنيّ، أيقظت بداخلى ما لم ءألفه من قبل

عدوتُ ناحيتها

أزحتهنَّ عنها.. فنزحن لغيرها متعجبات

خلعتُ عني ردائي.. وبيد أقسمتُ ألا تخدش نوريتها سترتها حتى عن عيني

حملتها بين ذراعيّ

قرَّبتها من صدري فتسلَّل إليه عبق أنفاسها

عيناها تلمع في شمس الميدان الناضجة

تلقي بألقها في أوردتي وشرايني.. فيسري الخدر

قلبي ينبض.. أشعر به.. أسمعه.. يحدثني أن ها قد عاد من التيه لأبصر معالمه

عاد من أجل وعلى يد من أحملها بين ذراعيّ الآن

دفعتُ كل الأجساد التي اعترضتني وعدوتُ بها ناحية المشفى الميداني

طالتني عصا شجت رأسي

لم أشعر إلا بيديها تمتدُّ لتزيح الدماء المتقدمة نحو عيني

لم تفعلها أمي ذات يوم حينما وقعت فشجت جبهتي

وصلتُ المشفى.. فقد كان خيمة والجرحى كثيرون

أنين يتصاعد وآخر يخفت

وثالث ينبتُ في رأسي

ورابع أشدُّ فتكاً يشتعل بقلبي على تلك التي أوجعنها العاهرات

وخامس على ما سلف من حياتي

أوصيتُ مَن حولي عليها ونهضتُ دون أن يُطيِّب أحد جرحي

خلعتُ نفسي من بين نظراتها التي ترجوني أن أبقى فلم تكن قادرة على النطق

وعدوتُ ناحية الميدان

تبدلتُ من حال إلى حال لا أعرف ما جرى

بعد أن كنت أحمل كل عفونة الضغينة للثوار صاروا أكثر قرباً لنفسي

كنتُ وأنا أخترق الميدان ناحية أتباعي لآمرهم بالكفِّ والرحيل أصادف ثائراً في قبضة همجيٍّ فأخلصه وأعنِّف الأخير.. حتى استطعت أن أخلص الكثير من براثن العنف السائد.

هدأ الميدان إلا من الأنين الضارب في أوصاله

وتلاشى خوفي عليها لمَّا خرجت تستند على كتفي

وواصل عفن الماضي تمدده نحو الميدان

****

خُلِقَ آدم من تراب

وخلقتُ أنا من قلب الميدان

صنعتُ على عين منها

أنا آدم

أنا آدم

أنا آدم

قلتها ثلاث مرات لمَّا سألتني عن اسمى فضحكت، وقالت لي:

- سمعتك يا آدم من أول مرة

لم تكن تعرف أني أكذب عليها وأصطنع لي اسماً جديداً، لم أشأ أن أبوح لها باسمى الحقيقى اعتقاداً مني أن مجرد البوح به ستعرف حقيقتي؛ فالملوثون من أمثالي دائماً ما يشعرون أن رائحتهم تفوح مع كل كلمة يقولونها أو حركة يقومون بها فيهرعون إلى إسدال غطاء على حقيقتهم وغالباً ما يكون هذا الغطاء هو الكذب

آدم الأولى قلتها بصوت خفيض كي أستسيغ اسمى الجديد وأقنع نفسي بخلق جديد لي

آدم الثانية قلتها بصدق بغية التطهر

آدم الثالثة قلتها وأنا أمد لها يدي لنعبر السياج الذي صنعه الثوار لتأمين الميدان

وضعتُ كفها الصغير في يدى فقفزت إلى ذهني ذكرى

تمددت ذات مساء فتاة عبقرية الحسن بجواري

بدوت بجانبها كجثة مهشمة العظام

لا روح فيها ولا حراك

نظري مشدود إلى سقف السماء المطل من نافذة الغرفة

حدثتُ السماء.. لماذا لم تجودى عليَّ بامرأة أحبها؟

سئمت تصنُّع الحب على أجساد العاهرات

كانت الفتاة الممدة بجانبي قد تعطرت من أجلى حتى أن خصلات شعرها حينما كانت تتطاير على وجهي تبعث في روحي الحزن

نعم من الممكن أن يبعث العطر في نفسك الحزن طالما أغلقتها على انكساراتك

حركتُ جسدي المثقل بالخطيئة ونظرتُ ناحية الفتاة

وسألتُ نفسي لماذا لا أحبها؟

فتاة لا ينقصها شيء.. لماذا لا أحبها؟

تصنَّعت الحب لها وعند شفتيها غبتُ طويلا

طفتُ بين مفاتن جسدها

لم أكن غير متصنع

وحتى هذا التصنع لم أفلح فيه

أختنق عند أول انتفاضاتي

تذكرتُ هذا لأن سؤالاً طرح نفسه بداخلي

تلك أعطتك جسدها ولم تحبها.. وتلك من قبل أن تعطيك فقط كفها الصغير تلاشيت فيها حباً

قالت لي:

- هل أنت خائف يا آدم..؟ النظام يحشد لدهسنا وموقعة الجمل ليست نهاية المطاف.

هى لات عرف أني لا أخاف.. أمي عودتني على ذلك، عودتني ألا أخاف..

أمي كانت تأتي رجالها بينما أنا حبيس غرفة نوم مظلمة لا تطفئ أنوارها إلا بيدها وبداخلي تطفئ أنفاسي

كنتُ أقول:

- أنا خائف يا أمي

وكانت تصفعني صفعات قوية، وتقول لى:

- الرجال لا يخافون

حتى بتُّ لا أخاف.. صفعاتها القوية عصفت بالخوف خارج حدود قلبي وحياتي.. هى لا تعرف أني أعرف القادم وأستقرأ معطياته وأعرف أن تلك الثورة مسروقة لا محالة وأعرف أن العنف ليس هو الطريق لسرقة الثورة ليت الأمر كله يصبح موقعة الجمل وما

جرى بشارع محمد محمود وهجوم البلطجية على الثوار وننتصر في نهاية المطاف ونزيح العفن بدماء من سيسقط منا. ليت الأمر يتوقف عند ذلك..

أعرف أذناب النظام جيداً.. تربيتُ على فحشهم ونجاساتهم.. أعرف أنهم سيلوون عنق الثورة وعنق كل من في الميدان إن لم يكن بالعنف والقتل والإرهاب فليكن بالوجه الآخر.. الوجه الذي يستدرجون به المرأة الشريفة ليصنعوا منها عاهرة يتبادلونها بينهم

- أخاف عليك فقط وأحبك

قلتُ لها ذلك.. فأغمضت عينيها وقالت خجلاً:

- آدم.. ليس هذا وقت الحب، إننا في ثورة ومن الممكن أن نموت في أيِّ وقت

****

أيها الميدان

حويت بين جنباتك ما حويت

ملائكة يرتدون كل الرداءات

وجوه نضرة يعتريها الارتياح

قلوب لا صدأ بها ولا ضغينة

كل النحل والملل عجنت قلوبهم في قلب رجل واحد

لا متشرذم

ولا مختلف

ولا ورقة بالأرض ولا اتساخ

الحب والوئام.. الاتفاق والعبقرية

التسامح والتلاحم وجبات سهلة تدور على الثوار

عنفوان النار يستعر في القلوب

يتأجج لصنع الحدث الأكبر

أكفاننا بيضاء محمولة على اليد

من أجل صنع الحدث الأكبر

عين الإله الذي لم أعرفه قط إلا على أرضك المقدسة تنظر هنا

تنظر لنا بعين الرضا

أجترُّ في عتمة ليلك نجاساتي

انفجر في داخلي كقنبلة موقوتة

أرى فتيانك فأخجل من نفسي

وألعن كل أرض نبتت عليها قطعة من جسدي

كل الهتافات عواصف تجتاح ماعلق في قلبي من قسوة

أتأمل ثمار العزيمة الطارحة في وجوه الثوار فأنتبه لما جنته يدي طيلة أيامي الفائتة

أتضاءل.. أتساقط أمام وميض التحدي

لم أدع هذا السؤال يجتاحني ويزلزل سعادتي

لماذا تبدَّلتُ من حال إلى حال في غمضة عين؟

ما بدَّلني هو ما بدل حال هذا الميدان في يوم وليلة؛ فمن بعد أن كانت الصفائح الصدئة تطلق صفارتها فيه وتصنع الضجيج وسط السائرين نياماً أصبح يضج باليقظة والانتباه والرغبة في السير صحواً

أيها الميدان

امنحني تلك الفتاة

هبني إياها

عدني أن ترعاها

وأعدك أن أمهرها النصر لك وللجالسين في مسافاتك العتيقة

سأفعل كل ما بوسعي؛ فأنا في جعبتي الكثير

سأحاول التغلبَ على شعوري بأن القادم قبيح

أيها الميدان.. أحبها

وأخشى عليها سفالة السافلين

إنى أعرفهم، زناة وهاتكو أعراض وقوادين وجبارين ومرتشين وآلهة على الأرض لا يخشون إلهى وإلهك

حافظ عليها أيها الميدان إن نالتني غفوة

أو التهيتُ عنها للحظة

أيها الميدان أودعتك سرى وتلك الشجيرة التي أسند ظهري إليها شاهدة عليه وكذا مجمعك الهائل

أقبلت من بعيد تناديني

- آدم.. هناك مَن يبحث عنك
- مَن يبحث عنى.. ولماذا يبحث عني عندك؟
- آدم ما بك..؟ فتاتان ورجل يقولون أن أمك تنتظرك هناك.. اتبعني وأنا سأدلك.. عرفوني مكانها وقالوا أن الثوار يمنعون دخولها إلى هنا
- لا.. قفي مكانك.. إياكِ أن تتحركي من هنا لا شأن لكِ بي وبأمي.. اسمعي.. اندسّي وسط زمرة الشباب الجالسين هناك.. لا تبرحي مكانكِ حتى آتيكِ ثانية

أمي في الميدان.. نسيتُ أمي في سطوة الأحداث.. كيف تهاوت أمي من ذاكرتى؟ كيف لم أحسب لها حساباً..؟ أمي لن تتركني ولن ترضى عن هذا الوضع، وكيف وصلت إليها بالذات لتخبرها أنها

تريدنى..؟ من المؤكد أن عيون أمي لم تفارقني منذ أن نزلت إلى الميدان.

****

فارقتُ الميدان إلى مجاهله.. إلى حيث الظلام الذي لا يعرفه غيري وغير أمي وأتباعنا.. قطعتُ المسافة تاركاً قلبي وعقلي في الميدان.. إن كان الميدان كله ينتظر خطاب التنحي فأنا أيضاً أسعى لانتزاع التنحي من عالم سئمته..

أمي تقف على مشارف مجاهل الميدان يلفها الظلام من كل ناحية تنفث في فضائه الفسيح دخان سيجارتها وتنفث معه غضبها الكامن في قلبها الصلد

- أمي.. ارحلي من هنا واتركيني.. وجدتُ طريقاً آخر يا أمي
- لماذا تأخرت.. ؟عشيقاتك يشتقن لمائك.
- إني أحب يا أمي.. صادفتُ فتاة ذات خلق ودين صنعت مني رجلاً حقاً
- أنا فقط من صنعتك.. أنت ابني وظهري.. هيا هيا عد كما كنت ابن قوادة الحي
- أنا الآن اسمى آدم يا أمي ولن أعود ثانية إلى سابق عهدي

- آدم.. تريد أن تشبَّ من جديد.. في تلك الأرض لا يولد الولد إلا مرة واحدة.. وإن أراد أن يولد ثانية فليمت ليولد في الآخرة من جديد.

انشق الظلام عن أتباعي ورجالي وانشقت أعينهم عن نظرات غدر، همست أمي لأحدهم فانصاع يبلغ ما أمرته به إلى باقى الرجال.. خلعوا أحزمتهم وحاوطوني وانهالوا على ضرباً.. ضرباتهم قاسية تُبلِّغني رسالة مهمة (المهانة هي نصيبي إن لم أعد كما كنتُ)

- أمي.. تُجرِّئينهم عليَّ؟
- عد كما كنت؛ يعودوا كما كانوا نعالاً في أقدامك.. فنحن أولاد الحرام ليس لنا إلا بعضنا البعض.
- لماذا تريدونني أن أتبعكم.. اتبعوني أنتم.. اتبعوني، نولد من جديد في الميدان نتطهر ونصنع لنا أرضاً جديدة
- ميدان.. أيُّ ميدان هذا الذي سنولد فيه من جديد ونتطهر على أعتابه؟ إن الجالسين هناك واهمون.. إن تلك الأرض لن تتغير.. هم قالوا لي ذلك.. أسياد تلك الأرض أكدوا لي ذلك.. فتياتي أكدن لي البارحة أنهنَّ كنَّ في أحضانهم كما لم يكونوا من قبل.. ثقتهم في السيطرة على الوضع

أعطتهم قوة مائة رجل.. فتياتي صادقات.. وأسرتهم تشهد بذلك

- الحال يتغير يا أمي ووجه الأرض يتبدل.. وأسيادك إلى زوال اتركيني وارحلي.. خذي رجالك وارحلي واتركي الأيام تحسم الأمر

ثارت ثائرة أمي وأمرتهم بعدم التوقف عن ضربي.. جسدي يؤلمني.. أتهاوى تحت أقدامهم.. لم تعد تُجدي المقاومة..
صرختُ.. وأقبلت نحوي.. هَوَت على صدري.. تلقَّت الضربات عني.. دعتهم أن يكفوا.. بزغ نور وجهها في الظلام.. تألَّقت ملامحها في عيني.. أزاحت بيدها الدماء عن وجهي، قلتُ لها:

- لماذا أتيتِ إلى هنا؟
- خِفتُ ألا تعود فتتبعتك إلى هنا.. هيا انهض يا آدم لا تتهاوى تحت أقدامهم.. أليس لك عهد مع الميدان.. سمعتك تبثه ما بداخلك.. كان صوتك مرتفعاً وأنا كنتُ خلفك.. هيا انهض

ناولتني كفها الصغير كي أنهض
مددتُ يدي نحوه ألتمس فيه طوق نجاه

لم أطله؛ فقد هوى.. سقط بجانب جسدها الذي سبقه ممدداً على الأرض بلا حراك

- لقد تنحَّى الرجل.. هيا نخرج من هنا

قالها لأمي مَن هوى على رأس حبيبتي بعصاه

- خذني إلى الميدان.. أريد أن تفارق روحي جسدي على ثراه.. خذني إلى جانب الشجيرة وضعني.. لا أريد أن أموت في ظلام مجاهله.. أريد أن أرحل وسط صخبه وفتيانه وفتياته وسياجه.. سياجه الذي وقت أن تجاوزناه متنا.. آدم أحبك.. وإن وصلنا إلى الميدان ولاتزال بي روح ذكرني أن أقولها لك ثانية كي أُشهد الميدان كله على ذلك

قالت لي هذا وهى في النزع الأخير.. حملتُها.. وقبل أن ألتفت ناحية الميدان التفتُّ ناحية أمي، وقلتُ لها:

- أمي.. إن ماتت آخر أحلامي سأعود إليكِ لأصبح ابنكِ ثانية.. ابن قوادة الحي.

انتهت

تدور حول شخص يستيقظ من النوم فى

عربة قطار لايدرى عن نفسه شيئا بجواره

حقيبة بها مجموعة اوراق يبدأ فى قرائتها

لمعرفة شيئ عن نفسه ولما لايصل لشيئ

ينتقل للعربة الاخيرة من القطار ليجد اغلب

الشخوص الذين قرأ عنهم موجودين بها

ويبدأ مرحلة التعرف على نفسه

المؤلف